العزة

الطبعة الأولى ١٤٤٣ هـ

إنّ العزة لله جميعًا

تأليف

محمد شومان الرملي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله العزيز الوهاب، منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب.

الحمد لله صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده.

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

أما بعد، فهذا تفسير مفصَّل مُستطرَد لقول الله عز وجل: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ الآية، كنت قد أجملته في مجلس علم وذِكر، جمعني بنخبة من إخوة أُحبهم في الله، وأدعوه تعالى أن يجمعني بهم في جنات النعيم.

وذكرت هنا ما أجملته في ذلك المجلس وزدت عليه، لمن يحب أن يقف عليه رأسًا، ثم أتبعت ذلك بالتفسير المفصَّل.

ثم تكلمت على اسم الله «العزيز»، ومعانيه، وذكرت عدد مرات وروده في كتاب الله عز وجل، وعدد مرات اقترانه بغير من الأسماء، ونبهت إلى بعض أسرار هذا الاقتران ووجوهها.

وتضمن الكتاب أسباب عزة المسلمين، وأن المستقبل والعاقبة والنصر والعزة والرفعة لهم، رغم أنوف أعدائهم من الكافرين والمنافقين، والمبغضين والحاقدين، وغيرهم، ورغم أنوف الجاهلين، وغير ذلك من الفوائد والتنبيهات.

سائلًا الله تعالى الهداية والسداد، والتوفيق لما يحب ويرضى، وأن ينفعني والقراء بما أكتب، إنه جواد كريم.

محمد شومان

مجمل تفسير الآية

قال الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [فاطر: ١٠].

العزة: المَنَعة والرفعة والقوة و والغلبة، وهي ضد الذِّلة، والعزيز ضد الذليل.

فمن أراد أن يكون عزيزًا قويًّا غيرَ ذليلٍ ولا مغلوبٍ فلْيَطلبْ ذلك من الذي له العزة جميعًا عز وجل، ولا يكون ذلك إلا بطاعته والإيمان به، وذكره وتلاوة كتابه، وبالأعمال الصالحة، كما قال سبحانه بعدها: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾؛ أي: الكَلِمُ الطيب، وهو ذكر الله وما والاه من الكلام، هو الذي يصعد إلى الله تعالى دون غيره، والعملُ الخالص الذي لا يُراءَى به، والذي هو على السنة دون البدعة، هو الذي يَرفع الكلمَ الطيبَ!! فالضمير في «يرفعه» يعود إلى «الكَلِمُ الطيب».

فما أجَلَّه من كلام! وما أعظمه من بيان!

وقيل: الضمير يعود إلى «العمل الصالح»؛ أي: والعمل الصالح يرفعه الله. وهذا بعيد، فلو كان كذلك لكان المعنى: أن الكلم يصعد وحده بنفسه، والعمل الصالح يرفعه الله!! ولا فرق في الصعود والرفع فإن الكلم الطيب يرفعه الله أيضًا(١)!

وقوّى هذا القول الثاني ابن عاشور ووجّهه، بل ولم يذكر سواه! ثم قال: «وإنما جيء في جانب العمل الصالح بالإخبار عنه بجملة يرفعه ولم يعطف على الكلم الطيب في حكم الصعود إلى الله مع تساوي الخبرين لفائدتين:

أولاهما: الإيماء إلى أن نوع العمل الصالح أهم من نوع الكلم الطيب على

(١) إلا أن يكون رفعًا مخصَّصًا، كما سيأتي من كلام ابن عاشور.

الجملة، لأن معظم العمل الصالح أوسع نفعًا من معظم الكلم الطيب (عدا كلمة الشهادتين وما ورد تفضيله من الأقوال في السنة مثل دعاء يوم عرفة)، فلذلك أُسند إلى الله رفعه بنفسه.

وثانيهما: أن الكلم الطيب يتكيف في الهواء، فإسناد الصعود إليه مناسب لماهيته، وأما العمل الصالح فهو كيفيات عارضة لذوات فاعلة ومفعولة فلا يناسبه إسناد الصعود إليه، وإنما يَحْسُن أن يُجعل متعلقًا لرفع يقع عليه ويُسَخَّره إلى الارتفاع». اهـ مختصرًا.

وقيل ـ وهو أبعد ـ: إن الضمير يعود إلى صاحب الكلم الطيب والعمل الصالح؛ أي: والعمل الصالح يرفع عاملَه، وهذا عَوْد بالضمير إلى غير مذكور!! أو عَوْد به إلى مذكور في ضِمن «مَنْ» في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾!!

وقيل: ـ وهو أبعد من كل ما تقدم ويأباه السياق ـ: إن ضمير الرفع المستتر (الفاعل) يعود إلى «الكلم»، وضمير النصب الظاهر (المفعول) يعود إلى «العمل»؛ أي: والكلمُ الطيبُ يرفع العملَ الصالحَ!!

وأما القول الأول الذي اخترناه، فبه فسَّر ابن جرير الآية، ولم يذكر سواه! ثم روى:

عن شهر بن حوشب الأشعري قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾، قال: العمل الصالح يرفع الكلم الطيب.

وعن ابن عباس قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾، قال: الكلام الطيب: ذكر الله، والعمل الصالح: أداء فرائضه، فمن ذكر الله سبحانه في أداء فرائضه حمل عليه ذكر الله فصعد به إلى الله، ومن ذكر الله، ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله فكان أولى به.

وعن مجاهد ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾، قال: العمل

الصالح يرفع الكلام الطيب.

وعن قتادة قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾، قال: قال الحسن وقتادة: لا يقبل الله قولًا إلا بعمل، من قال وأحسن العمل قَبل اللهُ منه. اهـ

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾؛ أي: والذين يدبرون المكائد السيئة الضارة، لهم عذاب شديد، ومكرهم يبطل ويفسد، كفى اللهُ المؤمنين شرهم، وجعل تدميرهم في تدبيرهم.

○○○○○

تفصيل تفسير الآية

التوحيد سبب العزة الأعظم:

فمن قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾، تعلم أن العزة لله وحده، فبه يُعتز، ومنه تُستمد العزة، من أطاعه فهو العزيز المنيع، ومن عصاه فهو المخذول الوضيع، فالعزة بالإيمان بالله، وبتوحيده، وبعبادته.

فمَنْ عَبَدَ الله وحده، ولم يذل إلا له، فلم يتخذ إلهًا سواه، ولا معبودًا إلا هو، ولا متوكَّلًا عليه ولا مستعانًا إلا هو، وأفرده سبحانه بالمحبة والخوف والرجاء، فهو الحر العزيز، وإلا كان ذليلًا مقهورًا لغير الله تعالى، ممن هو مخلوق مثله، من إنس أو جن، من سلطان أو غيره، أو هوى قلبٍ، أو شهوةِ نفس.

قال ابن سعدي: «ومن أعظم فضائل [التوحيد]: أنه يحرر العبد من رق المخلوقين، والتعلق بهم، وخوفهم ورجائهم، والعمل لأجلهم، وهذا هو العز الحقيقي والشرف العالي، ويكون مع ذلك متألهًا متعبدًا لله، لا يرجو سواه، ولا يخشى إلا إياه، ولا ينيب إلا إليه، وبذلك يتم فلاحه، ويتحقق نجاحه».

قال الله تعال: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران:٢٦-٢٧].

وقال سبحانه بعدها: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [آل عمران:٢٨].

ففيه تحذير من اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء، وابتغاء العزة عندهم، كما يفعل المنافقون[١]، فالله هو الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء، وسواه لا يملك

(١) كما سيأتي بعد قليل.

هذا ولا هذا، فلتُبتغَ العزة عنده وحده عزّ وجل.

العزة بذكر الله والعمل الصالح:

والعزة بذكر الله تعالى والثناء عليه، وبعمل الصالحات، وهي الأعمال الخالصة لله تعالى، المتَّبَع فيها رسوله ﷺ، وليست العزة بمكر السيئات[1]، كما قال تعالى بعدها: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾.

وأعظم ما يدخل في «الكلم الطيب» كلمة التوحيد «لا إله إلا الله»، وتتضمن تفرده سبحانه بالعزة.

ويدخل في «الكلم الطيب» التسبيح والتحميد وسائر الأذكار، ويدخل فيه من الأذكار على وجه الخصوص التكبير، فـ«الله أكبر الله أكبر» شعار العزة، وشعار من أعزهم الله بطاعته، وأكرمهم بهدايته.

ويدخل فيه كل ما يحبه الله تعالى من الأقوال، وأشهر ما يدخل فيها من أسباب العزة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[2]، الذي به تَعِز أمة الإسلام وترتفع، وبتركه تذل ويتسلط عليها أعداؤها.

وأعظم ما يدخل في الأعمال الصالحة: الصلاة، وركنها الأعظم السجود[3].

فصل

وقال تعالى في آية مشابهة: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [يونس:٦٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ

---

(١) تقدم الكلام على «مكر السيئات» في التفسير المجمل.

(٢) وسيأتي بيانه.

(٣) كما سيأتي، تحت عنوان: «التواضع لله عز وجل».

﴿أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [آل عمران:١٧٦-١٧٧].

فلا يحزنك ما يقولونه من الكفر والإساءة إليك والطعن في الدين، فإن هذا لن يضر الله شيئًا، ولا يضر دينه ولا يضر رسولَه ﷺ، فإن العزة لله تعالى، فهو العزيز الذي لن يبلغ العباد ضره فيضروه، وهو مانع رسوله ﷺ وعاصمه وحافظه.

العزة لله ولرسوله وللمؤمنين:

وله سبحانه وتعالى العزة ولرسوله وللمؤمنين، كما قال سبحانه بعد أن ذكر مقولة المنافقين أذلَّهم الله: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨].

﴿لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّ﴾: هذه مقولة الذليل زعيم المنافقين ومقدّمهم في الدرك الأسفل من النار، يعني بالأعز نفسَه، وبالأذل رسول الله ﷺ، حاشاه! بل الأمر بعكس ما قال، فهو الأذل الأخس الأوضع، ورسول الله ﷺ هو الأعز الأجل الأرفع، وقد أعزه الله ورفع ذكره في الدنيا والآخرة، كما قال سبحانه: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ [الشرح:٤].

فهو سيد ولد آدم، وإمام الأنبياء والمرسلين، وأفضل خلق الله تعالى وأحبهم إليه وأقربهم منه منزلة، وله من الذكر الجميل والقدر الكبير في الدنيا والآخرة ما لا يمكن استيعاب الكلام فيه، وله من التوقير والتعظيم في قلوب أصحابه وأتباعه وأمته ما لا يخفى.

وأثنى عليه سبحانه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ [القلم:٤].

فقد فطره الله تعالى على مكارم الأخلاق، وعظيم السجايا، فله مِن كلِّ خُلُقٍ حَسَنٍ أعلاه وأعظمه وأجمله.

وأنزل عليه القرآن العظيم، فتخلق بما فيه على أكمل وجه، وأعلى مرتبة،

فكان خُلُقُه القرآنَ، كما قالت الصدّيقة عائشة رضي الله عنها.

أي: انطبع وانصبغ بما فيه، علمًا وعملًا، وائتمارًا وانتهاءًا، وخُلُقًا وتخلُّقًا، فاجتمع له نور عظيم على نور عظيم، ﷺ.

و«على» تفيد الاستعلاء والتمكّن، فلم يقل سبحانه: وإنك لذو خلق عظيم. فتأمل!!

وقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ [الكوثر:١-٣].

أي: لستَ أبْتَرَ مقطوعًا كما يقول أعداؤك ومبغضوك، بل إنّا (و«إنّ» للتأكيد، و«نا» للتعظيم) أعطيناك الشيء الكثير الكثير: نهر الكوثر، وحوض الكوثر، والسيادة، والنبوة، والرسالة، وخَتْمها، فأنت سيد ولد آدم، وأنت سيد الرسل وإمامهم، وأعطيناك القرآن، والحكمة، والخُلُق العظيم، والرفعة، والذِّكر، والشرف، والجاه، والرياسة، والأتباع، والشفاعة، ولواء الحمد، والوسيلة، والفضيلة، وأنت أول من يقرع باب الجنة، وأنت وأنت وأنت!

واسمه ﷺ يُذكر في التشهد تسليمًا، وصلاة، وشهادة، وفي الأذان، وغير ذلك.

وصلى اللهُ تعالى عليه وملائكتُه، وأمر المؤمنين بالصلاة عليه.

وأقسم الله تعالى بحياته، ولم يقسم بحياة أحد من خلقه سواه، فقال: ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الحجر:٧٢].

قال ابن جرير: قوله: ﴿لَعَمۡرُكَ﴾، يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: وحياتك يا محمد، إن قومك من قريش، ﴿لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾؛ يقول: لفي ضلالتهم وجهلهم يترددون.

وروى عن ابن عباس قال: ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفسًا أكرم على الله من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى ذكره: ﴿لَعَمۡرُكَ

﴿إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

وروى عن ابن عباس - أيضًا - قال: ما حلف الله تعالى بحياة أحد إلا بحياة محمد ﷺ، قال: وحياتك يا محمد وعمرك وبقائك في الدنيا، ﴿إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

وجعل عز وجل اتباعه ﷺ شرطًا لمحبته تعالى لعباده، فمهما فعلوا، ومهما اجتهدوا، ومهما قدموا، ولو أحبوا الله وصدقوا في شيء من محبته تعالى! فإنه لن يحبهم حتى يتبعوا رسوله ﷺ، ويسيروا خلفه!

فأي عزة للنبي ﷺ وأي رفعة فوق هذا؟!!

والكلام في هذا يطول، والمقصود أن الله عز وجل أعز رسوله ﷺ ورفع ذكره في الدنيا والآخرة، وجعل من عاداه وشنأه وأبغضه وأساء إليه في أي وقت وزمان هو الحقير الذليل إلى يوم الدين.

قال شيخ الإسلام(١): «إن الكلمة الواحدة من سب النبي ﷺ لا تَحتمل بإسلام ألوف من الكفار، ولَأَنْ يظهر دينُ الله ظهورًا يَمنع أحدًا أن ينطق فيه بطعنٍ أحبُّ إلى الله ورسوله من أن يَدخل فيه أقوام وهو منتهك مستهان».

عَوْد

فالعزة لله ولرسوله وللمؤمنين، والمؤمن هو العزيز المنصور، والكافر وأخوه المنافق هو الذليل المهزوم، وما اختل ذلك ولا خرج عن قاعدته، ولا ذل قط أهل الإسلام إلا حين قصَّروا بالأخذ بأسباب العزة، واعتزوا بغير الله تعالى، وركنوا إلى أعدائهم، ورضوا بالحياة الدنيا، واغتروا بزخرفها، وأخلدوا إلى الأرض، فمن أخلد إلى الأرض واثّاقل إليها ذل وخنع وخضع، ومن توجه إلى السماء عز وعظُم وارتفع، ومن كان كلامه إلى الله صاعدًا، وعمله إليه مرفوعًا، كيف لا يرفعه الله

(١) «الصارم المسلول» (ص ٥٠٥).

ويؤيده ويُعِزّه ويقويه وينصره؟!!!

وتأمل في قصة أبي البشر عليه الصلاة والسلام مع إبليس، وانظر ماذا تلا المعصية غير اهبطوا؟! وماذا تلا التوبة غير الاستخلاف في الأرض؟!

وتأمل ماذا بعد ترفع الصدّيق يوسف عليه الصلاة والسلام عن المعصية واختياره السجن غير يا أيها العزيز؟!

وتأمل حال قارون لما علا واستكبر وتبختر فوق الأرض كيف خُسِف به فصار في باطنها!

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨].

ثم قال سبحانه: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص:٨١].

وتأمل حال فرعون لما علا واستكبر وتباهى بالأنهار تجري من تحته كيف أغرقه الله فيها.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف:٥١].

ثم قال سبحانه: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ [الزخرف:٥٥-٥٦].

وقال سبحانه ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٤٠].

ذلة اليهود ومسكنتهم:

قال الله عز وجل: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ

بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة:٦١].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾؛ أي: وُضِعت عليهم وأُلزِموا بها شرعًا وقدَرًا، أي: لا يزالون مستذَلين، مَنْ وجدهم استذلهم وأهانهم، وضَرب عليهم الصغار، وهم مع ذلك في أنفسهم أذلاء متمسكنون.

قال عبد الرزاق، عن معمر، عن الحسن وقتادة، في قوله تعالى: {﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ﴾، قال: يُعطُون الجزية عن يد وهم صاغرون، وقال الضحاك: {﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾، قال: الذل. وقال الحسن: أذلهم الله فلا مَنَعة لهم، وجعلهم الله تحت أقدام المسلمين، ولقد أدركتْهم هذه الأمة وإن المجوس لتجبيهم الجزية».

وقال ابن سعدي: «﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾، التي تشاهَد على ظاهر أبدانهم، ﴿وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾، بقلوبهم، فلم تكن أنفسهم عزيزة، ولا لهم همم عالية، بل أنفسهم أنفس مهينة، وهممهم أردأ الهمم، ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لم تكن غنيمتهم التي رجعوا بها وفازوا إلا أن رجعوا بسخطه عليهم، فبئست الغنيمة غنيمتهم، وبئست الحالة حالتهم».

وقال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران:١١٢].

الغلبة لله عز وجل ولرسله عليهم والسلام:

وقال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ۞ كَتَبَ ٱللَّهُ

﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المجادلة:٢٠-٢١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر:٥١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾ [إبراهيم:٤٧].

النصر لمن ينصر الله تعالى:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ * أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ * ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٣٨-٤٠].

العز والتمكين للمؤمنين:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [النور:٥٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩].

وقال سبحانه: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [محمد:٣٥].

العزة بتولي الله تعالى ورسوله ﷺ والمؤمنين:

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۞ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ۞ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٤-٥٦].

العزيز من تولاه الله تعالى:

عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: علمني رسول الله ﷺ كلماتٍ أقولهُنّ في قنوت الوتر(!):

«اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتُ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتُ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ، لَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ»(١).

قال ابن القيم في قوله ﷺ: (إنه لا يذل من واليت)(٢): «فإنه منصور عزيز غالب بسبب توليك له، وفي هذا تنبيه على أن من حصل له ذل في الناس فهو بنقصان ما فاته من تولي الله، وإلا فمع الولاية الكاملة ينتفي الذل كله، ولو سُلِّط عليه بالأذى مَن في أقطارها فهو العزيز غير الذليل».

وقال(٣): «ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه، وله من العز بحسب طاعته، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه، وله من الذل بحسب معصيته».

عزّ جارك:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إذا كان على أحدكم إمام

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٢٥) وغيره، وصحح إسناده الألباني، وانظر «أصل صفة الصلاة» (ص ٩٧٣-٩٧٤).

(٢) «شفاء العليل» (ص ١١).

(٣) «الداء والدواء» (ص ١٨٠).

يخاف تغطرسه أو ظلمه، فليقل: اللهم رب السماوات السبع، ورب العرش العظيم، كن لي جارًا من فلان بن فلان وأحزابه من خلائقك، أن يَفْرُط عليَّ أحدٌ منهم أو يطغى، عَزّ جارُك، وجَلّ ثناؤك، ولا إله إلا أنت[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: إذا أتيت سلطانًا مَهيبًا تخاف أن يسطو عليك فقل: الله أكبر، الله أعَزُّ من خلقه جميعًا، الله أعَزُّ مما أخاف وأحذر، أعوذ بالله الذي لا إله إلا هو، الممسك السماوات السبع أن يقعن على الأرض إلا بإذنه، من شر عبدك فلان وجنوده وأتباعه وأشياعه من الجن والإنس، اللهم كن لي جارًا من شرهم، جَلّ ثناؤك، وعَزّ جارُك، وتبارك اسمك، ولا إله غيرك، ثلاث مرات[٢].

اعتزاز الكفرة والمشركين بآلهتهم:

هذا، والكفرة إنما يعتزون ويفتخرون بما عندهم من الأموال والأولاد، ويعتزون بقوتهم وشدتهم وجبروتهم، ويعتزون بآلهتهم المزعومة، ومعبوداتهم الموهومة، ويعتزون بعلمهم وما وصلوا إليه من التطور والصناعات، ومحاولة النفوذ في أقطار الأرض والسماوات! وما وصلوا إليه من معرفة النجوم والكواكب والمجرات، سواء كان ذلك، بالتصوير المقرِّب لها، أو بالهبوط على بعضها كالقمر وغيره.

وتبعهم فاعتز بهم وبما عندهم من القوة والمعرفة وغيرها إخوانُهم المنافقون، فاتخذوهم أولياء من دون الله، ولو كانوا يؤمنون بالله وكتابه ونبيه ﷺ ما اتخذوهم أولياء[٣]! واغتر بهم كذلك كثير من جهلة المسلمين.

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٠٧) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٩١٧٧) وغيره، وهو في «صحيح الترغيب» (٢٢٣٨).

(٣) كما قال الله سبحانه: ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة:٨١].

وكل ذلك إنما ينشأ من الجهل بمصدر العزة، ومن ضعف اليقين والإيمان، والرضا بالذل والهوان.

قال الله تبارك وتعالى عن الكافرين: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۞ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۞ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم:٨١-٨٣].

أي: واتخذ الكافرون من دون الله آلهة، من الأصنام وغيرها، ليكونوا لهم معزِّين؛ أي: ناصرين ومقوِّين ورافعين، لكن الله أبى أن يعز من عصاه، وأبى أن تكون العزة إلا به ومن عنده، فجازاهم بضد ما أمّلوا، فستكفر بهم آلهتهم يوم القيامة وستجحد عبادتهم لهم، كما قال سبحانه: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَاۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ [القصص:٦٣].

بل وسينقلب ما أرادوه منهم من العزّ ذلًّا، وسيتسلطون عليهم بأنواع الوسوسة والصد عن الحق وتزيين الباطل.

وقال سبحانه عن سحرة فرعون: ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۞ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الشعراء:٤٣-٤٤].

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ ﴾؛ أي: استعانوا وتيمنوا بعزة فرعون، قال ابن كثير: «وهذا كما يقوله الجهلة من العوام إذا فعلوا شيئًا: هذا بثواب فلان». اهـ.
أو أقسموا بها، قال الطبري: «أقسموا بقوة فرعون وشدة سلطانه ومَنَعَة مملكته». اهـ.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۞ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۞ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ۞ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ [الأعراف:١١٧-١٢٠].

فلم يتحقق لهم **تلك الساعة** ما اعتزوا بفرعون في تحصيله، بل انقلبوا صاغرين ذليلين، ضد ما أمّلوا من العز والنصر والغلبة!

الكفار أذلاء وإن تظاهروا بالعز:

فمهما رأيت من تمكن الكفار، وما هم فيه من العز والفخار، والملك والعلم والتطور، فإنهم في أنفسهم ينطوون على ذل عظيم، وإن لم يظهروه.

قال الحسن: وإن هملجت[١] بهم البراذين[٢]، وطقطقت بهم البغال إن ذل المعصية لفي قلوبهم، أبى الله عز وجل إلا أن يذل من عصاه[٣].

وكان من دعاء بعض السلف: اللـهم أعزني بطاعتك، ولا تذلني بمعصيتك[٤].

وقال بعض السلف: الناس يطلبون العز بأبواب الملوك ولا يجدونه إلا فى طاعة الله[٥].

وقال عبد الله بن المبارك[٦]:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها

وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها

وتقدم قبل قليل قول النبي ﷺ: «وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ».

وسيأتي حديث: «وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي».

---

(١) أي: سارت سيرًا حسنة فيه سرعة وبختره.

(٢) مفردها بِرْذَوْن. والبِرْذَوْن: يُطلق على غير العربي من الخيل والبغال، من الفصيلة الخيلية، عظيم الخِلْقة، غليظ الأعضاء، قوي الأرجل، عظيم الحوافر. «وسيط».

(٣) «إغاثة اللهفان» (٤٨/١).

(٤) «الداء والدواء» (ص ٥٩).

(٥) «إغاثة اللهفان» (٤٨/١).

(٦) «الداء والدواء» (ص ٥٩).

اعتزاز الكفار بالأموال والأولاد:

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ:٣٥-٣٧].

فالأموال والأولاد أشياء يعتز بها الناس في الدنيا عادة(١)، بل هي أشهر ما يعتزون به ويتفاخرون ويتكاثرون، لكنها لا تنفع أصحابها إلا إذا كانوا متقين لله تعالى فيها، مؤدِّين شكرها، فالعبد ينفعه ماله فيما استخدمه من طاعة الله من صدقة وغيرها، وينفعه صلاح ولده في الدنيا والآخرة، وكذلك سائر متاع الدنيا، إذا استخدمه في طاعة الله تعالى، والتقرب إليه، كما قال سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾. الآية. أما إذا اعتز به دون الله وطاعته، فإنه يكون وبالًا عليه.

فالعز بالإيمان والعمل الصالح، لا بالأموال ولا بالأولاد، ولا بالحسب ولا بالنسب، فإن هذه لا تنفع إلا إذا أعانت على التقوى، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف:٤٦].

وكما قال النبي ﷺ: «الحَسَبُ الْمَالُ»، وأتبعها بقوله: «وَالْكَرَمُ التَّقْوَى»(٢).

وقال الله سبحانه: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣].

والتقوى هي الميزان الذي يوزن به العباد عند الله عز وجل، وبقدرها يَعِزُّ العبد ويَشرف ويَكرم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

---

(١) كما قال النبي ﷺ: «الحَسَبُ الْمَالُ». الحديث. وسيأتي.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٧١) وغيره، وصححه الألباني.

قال الطبري[1]: «قوله: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾؛ يقول تعالى ذكره: إن أكرمكم أيها الناس عند ربكم أشدكم اتقاء له، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، لا أعظمكم بيتًا ولا أكثركم عشيرة».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: سُئل رسول الله ﷺ: من أكرمُ الناس؟ قال: «أَتْقَاهُمْ لِلَّهِ». الحديث[2].

قال شيخ الإسلام[3]: «ليس في كتاب الله آية واحدة يَمدح فيها أحدًا بنسبه، ولا يَذم أحدًا بنسبه، وإنما يَمدح بالإيمان والتقوى، ويَذم بالكفر والفسوق والعصيان».

ولأبي العتاهية:

ألا إنما التقوى هي العز والكرمْ	وحُبُّك للدنيا هو الذل والعَدَمْ
وليس على عبدٍ تقيٍّ نقيصةٌ	إذا صحح التقوى وإن حاك أو حَجَمْ

المنافقون يبتغون العزة عند الكفار:

قال الله عز وجل: ﴿ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا * ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٣٨-١٣٩].

فالكفار ـ كما تقدم ـ يعتزون بغير الله عز وجل، من الأموال والأولاد والقوة والسلطان، والمنافقون لجهلهم يغترون بما لدى إخوانهم من ذلك، فيبتغون عندهم العزة، ولا يدرون لخُلُوّ قلوبهم من الإيمان أن العزة لله جميعًا!!

تشبه المسلمين بالكفار:

هذا، وقد تشبه بالكفار كثير من المنتسبين إلى الإسلام، فتفاخروا بينهم

(١) «تفسيره» (١١/٣٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٨٣، وفي مواضع أُخَر).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٣٦/٢٣٠).

وتكاثروا في الأموال والأولاد، وتنافسوا في الحطام الفاني من القصور والمراكب، من سيارات وطائرات، وخيول أيضًا وبغال! وغيرها، والذهب والمجوهرات، وأشياء أُخَر تتعجب من وقوع التنافس فيها، حتى بِتَّ تسمع في المباهاة والتنافس فيهم ما لم يكن يخطر من قبل بالبال، ولولا أنه حصل حقًّا لما أمكن أن يُصَدَّق أن يقع من عاقل، فضلًا عن كونه منتسبًا إلى الإسلام، ويؤمن بيوم الحساب، ويؤمن بوجود جنة ونار!!

فحرِيٌّ بأهل العلم والوعاظ والمذكّرين ـ كما يَنْهَون المسلمين عن التشبه بالكفار، من أهل الكتاب وغيرهم، في لباسهم وهيئتهم ونحوها ـ أن يَنْهَوْهم من باب أولى عن التشبه بهم في التعلق بالدنيا، والحرص الشديد عليها، والعشق لها، والاستماتة في تحصيلها، والذهاب كل مذهب في طلبها، بل وعبادة دينارها ودرهمها، وذهبها وفضتها!!

قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦].

وقال سبحانه: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة:٩٦].

وليحذر المسلمون من أن يصل بهم تشبههم بالكفار في ظواهرهم أن يسري ذلك إلى بواطنهم، فيلتحقوا بالمنافقين ـ والعياذ بالله ـ وهم لا يشعرون، فإن «من تشبه بقوم فهو منهم»، كما قال النبي ﷺ[(١)].

قال شيخ الإسلام[(٢)]: «المشابهة في الظاهر تورث نوع مودة ومحبة وموالاة في

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٣١) وغيره، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وصححه الألباني.

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/٥٥٠).

الباطن، كما أن المحبة في الباطن تورث المشابهة في الظاهر، وهذا أمر يَشهد به الحِسّ والتجربة». اهـ.

وتأمل كيف حذر الله عز وجل المؤمنين أن تلهيَهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله، وذلك بعد ذِكر مقولة المنافقين، فقال سبحانه: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون:٧-٩].

ففي الآية تحذير من الالتهاء بالأموال والأولاد عن ذكر الله، كما هو حال المنافقين.

الدنيا امتحان:

ولْيكرِّروا عليهم ولْيعيدوا: أن هذه الدنيا بكل ما فيها ما هي إلا ابتلاء وامتحان من الله تعالى لعباده، لينظر كيف يعملون!

قال الله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك:١-٢].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [الكهف:٧-٨].

فتدبر عبد الله هذه الآيات وأشباهها، واجعلها نُصْب عينيك، ولا تغتر بكثرة الغافلين والهالكين، فإنما هي نفسُك؛ نَفْسٌ واحدة، إذا خسرتها خسرت كل شيء، وإذا ربحتها ربحت كل شيء، والموت نهاية كل حي.

وكأنك بالقيامة قد أَزِفتْ، وبالجحيم قد سُعِّرتْ وبالجنة قد أُزلفتْ، ، وجاء

الحساب، بالعقاب أو الثواب، وتطايرت صحف الأعمال، فناجٍ مُطْلَق، وخاسر مُوْثَق، وقيل: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت!!!

قال الشنقيطي[١]: «ولا شك أن العاقل إذا علم أن الحكمة التي خُلِق من أجلها هي أن يُبْتَلى (أي: يُختبر) بإحسان العمل، فإنه يهتم كل الاهتمام بالطريق الموصلة لنجاحه في هذا الاختبار». اهـ.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، لِيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»[٢].

وقال ﷺ: «وَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»[٣].

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه:١٣١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»[٤].

قال الحافظ[٥]: «قوله: (حفت)، من الحِفاف، وهو ما يحيط بالشيء حتى لا يُتوصَّل إليه إلا بتخطيه، فالجنة لا يُتوصَّل إليها إلا بقطع مفاوز المكاره، والنار لا

---

(١) «أضواء البيان» (١١/٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٤٢) وغيره.

(٣) بعض حديث، متفق عليه.

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٢٢) وغيره.

(٥) «الفتح» (١١/٣٢٠-٣٢١).

يُنجَى منها إلا بترك الشهوات».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ قَالَ لِجِبْرِيلَ: اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا، ثُمَّ حَفَّهَا بِالْمَكَارِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ».

قال: «فَلَمَّا خَلَقَ اللَّهُ النَّارَ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا، فَحَفَّهَا بِالشَّهَوَاتِ، ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا»[1].

ولابن عبد القوي[2]:

خُذوا أُهْبَةً في الزاد فالموت كائنٌ ... فما منه من مَنْجَا وَلا عَنْهُ عُنْدَدِ
فما داركم هذه بدار إقامةٍ ... ولكنها دار ابْتِلَا وتَزَوُّدِ
أَمَا جاءكم من ربكم وتزودوا ... فما عذرُ مَنْ وافاهُ غيرَ مُزَوَّدِ
وما هذه الأيام إلا مراحلٌ ... تُقَرِّبُ من دار اللِّقَا كلَّ مُبْعَدِ
ومَنْ سار نحو الدار ستينَ حِجَّةً ... فقد حان منه المُلتقى وَكأَنْ قَدِ

عَوْد

وقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٤٤)، والترمذي (٢٥٦٠)، وغيرهما، وجود إسناده الألباني في تعليقه على «التنكيل» (١٧٧/٢).

(٢) «عقد الفرائد وكنز الفوائد» (أول كتاب الجنائز). ومعنى ولا عنه عُنْدَد؛ أي: لا بد منه؛ أي: لا مهرب منه.

بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ [الروم:٩].

وقال سبحانه: ﴿ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴾ [فاطر:٤٤].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴾ [غافر:٢١].

وقال سبحانه: ﴿ فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ * فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ * وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ * وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [فصلت:١٥-١٨].

وقوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾، قال ابن جرير: «يقول: فأهلكتْهم من العذاب المُذِلّ المُهين مهلكةٌ أذلتهم وأخزتهم، والهُون: هو الهوان». اهـ.

وقال سبحانه: ﴿ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [الزخرف:٨].

وقال سبحانه: ﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ * بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ * كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ﴾ [ص:١-٣].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ﴾؛ أي: إن في هذا القرآن لذكرًا لمن يتذكر، وعبرةً لمن يعتبر، وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم ﴿ فِي عِزَّةٖ ﴾؛ أي: استكبارٍ عنه وحَمِيّة، ﴿ وَشِقَاقٖ ﴾؛ أي: مخالفة له ومعاندة ومفارقة.

ثم خوفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم بسبب مخالفتهم للرسل وتكذيبهم الكتب المنزلة من السماء فقال: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾؛ أي: من أُمّة مكذبة، ﴿فَنَادَوا﴾؛ أي: حين جاءهم العذاب استغاثوا وجأروا إلى الله، وليس ذلك بمُجْدٍ عنهم شيئًا، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ [الأنبياء:١٢]؛ أي: يهربون، ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوٓا إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:١٣].

قال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق، عن التميمي قال: سألت ابن عباس عن قول الله: ﴿فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، قال: ليس بحين نداء، ولا نَزْوٍ ولا فِرار.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ليس بحين مَغاث.

وقال شَبيب بن بِشر، عن عكرمة، عن ابن عباس: نادَوْا النداء حين لا ينفعهم، وأنشد:

تذكَّرتُ ليلى لاتَ حين تَذَكُّرِ

وقال محمد بن كعب في قوله: ﴿فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، يقول: نادَوْا بالتوحيد حين تولت الدنيا عنهم، واستناصوا[١] للتوبة حين تولت الدنيا عنهم.

وقال قتادة: لما رأَوُا العذاب أرادوا التوبة في غير حين النداء.

وقال مجاهد: ﴿فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، ليس بحين فِرار ولا إجابة.

وقد روي نحو هذا عن عكرمة، وسعيد بن جبير، وأبي مالك، والضحاك، وزيد بن أسلم، والحسن، وقتادة.

وعن مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، ولا نداء في غير حين النداء».

---

(١) أي: تحركوا ونهضوا.

ولا ينفع ذا الجد منك الجد:

وقد جاء في الأحاديث: «وَلاَ يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ»، فمنها:

عن وَرَّادٍ مولى المغيرة بن شعبة قال: كتب المغيرة إلى معاوية بن أبي سفيان: أن رسول الله ﷺ كان يقول في دبر كل صلاة إذا سلَّم:

«لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ»[1].

قال العظيم آبادي: «(وَلاَ يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ): المشهور فيه فتح الجيم، هكذا ضبطه العلماء المتقدمون والمتأخرون، وهو الصحيح، ومعناه: الحظ والغنى والعظمة والسلطان؛ أي: لا ينفع ذا الحظ في الدنيا بالمال والولد والعظمة والسلطان منك حظُّه؛ أي: لا ينجيه حظُّه منك، وإنما ينفعه وينجيه العمل الصالح، كقوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الكهف:٤٦]». اهـ.

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:٨٥].

وقال تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الممتحنة:٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١].

---

(١) متفق عليه.

وقال تعالى: ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٦٧].

العزة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قال الله تعالى: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران:١١٠].

وفي الحديث: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ»(١).

وفيه: «مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي، ثُمَّ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا، ثُمَّ لَا يُغَيِّرُوا، إِلَّا يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ»(٢).

وفيه: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَكُونُ فِي قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي، يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا عَلَيْهِ، فَلَا يُغَيِّرُوا، إِلَّا أَصَابَهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمُوتُوا»(٣).

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو العلامة الكبرى على خيرية الأمة وترؤسها لقيادة الناس، والأخذ بأيديهم إلى النجاة، وتركه سبب لوقوع العقاب والخروج من دائرة العزة وحماية «العزيز» لها.

العزة بالجهاد:

ومن أسباب العزة: الجهاد ومقارعة أعداء الله تعالى بالسلاح، والإعداد لهم بكل مستطاع.

قال الله تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ

(١) أخرجه الترمذي (٢١٦٩) وغيره، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٣٨) وغيره، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٣٣٩) وغيره، وحسنه الألباني.

عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة:٢٩].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ ﴾؛ أي: إن لم يسلموا، {﴿عَن يَدٖ ﴾؛ أي: عن قهر لهم وغلبة، ﴿وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾؛ أي: ذليلون حقيرون مهانون. فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين، بل هم أذلاء صَغَرة أشقياء، كما جاء في «صحيح مسلم»[1]: عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: لَا تَبْدَؤوا الْيَهُودَ والنَّصَارَى بِالسَّلَامِ، وَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ».

قال: «ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، تلك الشروط المعروفة في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم، وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ، من رواية عبد الرحمن بن غَنْمٍ الأشعري قال: كتبت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، حين صالح نصارى من أهل الشام:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا، وشرطنا لكم على أنفسنا ألا نُحْدِث في مدينتنا ولا فيما حولها دَيْرًا ولا كنيسة، ولا قَلّاية[2] ولا صومعة راهب».

إلى أن قال: «وأن نوقر المسلمين، وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم، في قلنسوة، ولا عمامة، ولا نعلين، ولا فرق شعر، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نكتني بكناهم، ولا نركب السروج، ولا نتقلد السيوف، ولا نتخذ شيئًا من السلاح، ولا نحمله معنا، ولا

---

(١) (رقم ٢١٦٧)، ولفظه: «لَا تَبْدَؤوا الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ، فَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ».

(٢) القلاية: شبه الصومعة، أو مسكن الأسقف. والصومعة: بيت العبادة عند النصارى.

ننقش خواتيمنا بالعربية، ولا نبيع الخمور، وأن نجز مقاديم رؤوسنا، وأن نلزم زينا حيثما كنا، وأن نشد الزنانير على أوساطنا، وألا نظهر الصليب على كنائسنا، وألا نظهر صُلُبَنا ولا كتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم»(١). اهـ.

فانظر بالله إلى عز المسلمين ذاك!!! وقل: اللـهم مكّن للمؤمنين في الأرض، وأرِهم أيامًا كتلك الأيام، وأذِل أعداءك الذين يقتّلون أولياءك، ويسومونهم سوء العذاب، ويذلونهم، وأذل من والاهم وأعانهم على ذلك، اللـهم عجّل نصر جندك، وأْمُرْ بعزهم، واشفِ صدورهم من عدوهم، ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة:١٤].

وفي الحديث: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»(٢).

فالعز في الجهاد، والانشغال بالله وطاعته، لا بالانشغال بمتاع الدنيا والرضا بها، وبالمال والمراباة به، فإن المسلمين إذا فعلوا ذلك سلط الله عليهم ذلًّا (وهو ضد العِزّ) لا ينزعه عنهم حتى يرجعوا إلى دينهم.

وقوله ﷺ: «حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»: كأنهم بهذه الخصال تركوا دينهم! فإن ذروته هو الجهاد، وروحه هو الزهد في الحياة الدنيا.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»(٣).

---

(١) وللكتاب بقية.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٤٦٢) وغيره، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أحمد (٥١١٤ وفي مواضع أُخَر) وغيره، وحسنه الألباني في «جلباب المرأة» (ص ١٠٣).

والناظر في هدي النبي ﷺ وسيرته، وسِيَر أصحابه رضي الله عنهم، وفي غزوات ومعارك الإسلام، خصوصًا معارك سيد الأنام، يرى عزة المؤمنين في جهادهم، ورفعتهم في انتصاراتهم؛ بدر وأحد والخندق ومؤتة، واليرموك، ونهاوند والقادسية، وحطين وبلاط الشهداء، وغيرها.

هذا، وقد خرج النبي ﷺ من مكة مهاجرًا، وفيما يَرى أعداؤه مستضعفًا ذليلًا (حاشاه ﷺ)، فما استقرت قدمه في المدينة حتى أسس دولة الإسلام، وأقام صرح الإيمان، وما هي إلا سنوات معدودة، حتى عاد إلى مكة فاتحًا معزَّزًا مكرمًا، قد طأطأت الرجال له رؤوسها، وأذعنت الفرسان لعزته جبروتها، وهو شامخ منصور، ولكنه متواضع الرأس للعزيز الغفور، سبحانه، فعفا عنهم عن عزة، وأطلقهم عن قدرة، ورفع الله قدره وقدر دينه، ومكّن له في الأرض، وما هي إلا برهة من الزمان حتى بدأ زحف جند الإسلام إلى خارج الجزيرة، يفتح مدائن كسرى، ويغزو قصور قيصر، ووصلت الفتوحات إلى بلاد السند والهند والصين، والمغرب والأندلس، ووصلت إلى مشارف باريس، وأظهر الله الدين، وأعز الإسلام والمسلمين.

العزة في طاعة الله تعالى والذلة في معصيته:

وقد تقدم الكلام على هذا مستوفًى عند قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ الآية. وتقدم قبل قليل حديث التبايع بالعِينة.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال:

«يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ:

لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا.

وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ، وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ.

وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا.

وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ، وَعَهْدَ رَسُولِهِ، إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ.

وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ، إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ»[١].

قال ابن القيم[٢] في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:٥٣]: «فإنْ غيّر [العبدُ] المعصيةَ بالطاعة غيّر اللهُ عليه العقوبةَ بالعافية، والذلَّ بالعز».

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [البقرة:٢٠٤-٢٠٦].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾؛ أي: أخذته عزته (حميَّته ومَنَعَتُه وقوته) واستولت عليه، فتكبر ولم يرض بنصح الناصحين له، واستمر في ظلمه وغَيّه وفساده وإفساده. ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾؛ فكافيه جهنم مكانًا يُمْهَد له، وموضعًا معدًّا يتعذب فيه ويُذَلّ فيه، جزاء ما

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٩) وغيره، وحسنه الألباني.

(٢) انظر «الداء والدواء» (١/١٨٠).

عصى الله به وتعزز!

ويشبه هذا قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ﴾ [ص:٢]. وقد تقدم.

عزة المؤمنين في الآخرة وذل العصاة والكافرين:

قال الله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ * وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [يونس:٢٦-٢٧].

وقال سبحانه: ﴿ يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ * خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ﴾ [القلم:٤٢-٤٣].

وقال سبحانه: ﴿ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ * خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ {المعارج:٤٣-٤٤}.

وقال سبحانه: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ * ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ * وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ * تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴾ [عبس:٣٨-٤٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ * يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلٗى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ * إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ * كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ * كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ * خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ * ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ * إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ * إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ * فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ * يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ * كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ * يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ * لَا

يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۞ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الدخان:٤٠-٥٧].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۞ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۞ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۞ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ۞ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ۞ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۞ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۞ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۞ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۞ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۞ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ [الصافات:١٥-٢٦]. إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۞ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ۞ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۞ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ۞ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۞ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۞ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۞ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۞ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات:٦٠-٦٨].

قال ابن سعدي: «﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾؛ ذليلون صاغرون، لا تمتنعون ولا تستعصون على قدرة الله». اهـ

وذكر الله تعالى الفجار والأبرار فقال: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۞ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۞ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۞ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۞ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۞ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۞ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۞ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۞ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۞ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۞ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ [المطففين:١٥-٢٦]. إلى أن قال سبحانه: ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۞ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۞ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [المطففين:٣٤-٣٦].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۞ إِنَّ

﴿ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۞ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [الإنسان:٤-٦]. إلى أن قال: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ۞ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ [الإنسان:١٩-٢٠].

فأي فوز للمتقين أعظم من هذا؟! وأي عزة فوقه؟! وأي ذلة للمكذبين وهوان أشد منه؟!

وقوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾، هذا في غاية التهكم، والمراد عكسه؛ أي: ذق إنك أنت الذليل المهان المحتقر، وادرأ عن نفسك العذاب إن كنت عزيزًا منيعًا، فلا عزة لأحد اليوم إلا من يعزه الله فيدفع عنه العذاب، وهم المؤمنون المتقون.

وقال تعالى: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۞ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ۞ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۞ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ۞ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [غافر:٧١-٧٦].

وقال سبحانه: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:٦٠].

قوله تعالى: ﴿ دَاخِرِينَ ﴾؛ أي: ذليلين حقيرين.

وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «يُحْشَرُ المُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ، طِينَةِ الخَبَالِ»(١).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٩٢)، وغيره، وقال: «حسن صحيح»، وحسنه الألباني.

فلما تكبروا على الله تعالى، واستكبروا عن عبادته، وتكبروا على خلقه، أذلهم في الآخرة وصغرهم وحقرهم، جزاءً من جنس العمل.

و(طينة الخبال): هي عصارة أهل النار ـ كما هي مفسرة في الحديث ـ وهي ما يسيل منهم من القيح والدم وغيره، و(الخبال) في الأصل: الفساد، ويكون ـ كما في «النهاية» ـ في الأفعال والأبدان والعقول.

وإنما سُمّيت بذلك لشدة فسادها وقوة إفسادها، ولما كان المتكبرون من أشد الناس فسادًا وأكثرهم إفسادًا في الأرض، خاصة إذا كانوا ملوكًا وسلاطين، كان هذا الجزاء مناسبًا لحالهم وأعمالهم.

وقال تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم:٨٥-٨٦].

وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ * وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس:٥٣-٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ:٣٣].

وقال تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ * إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج:١٩-٢٤].

وقال سبحانه وتعالى حاكيًا عن مؤمن آل فرعون واعظًا قومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ۝ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ [غافر:٣٢-٣٣].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ۝ وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ۝ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ [الشورى:٤٤-٤٦].

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾؛ هذا حال فظيع من الذلة والمهانة، فهم يعرضون على جهنم أعاذنا الله منها، حالهم حال من قد أرهقه الذل والخوف، فهو ينظر مسارقة، نظر الخاشع الذليل، فلا عزة ولا كرامة!! أين ذهبت عزتهم المزعومة بآلهتهم وأموالهم وأولادهم وجنودهم؟! وأين ذهب سلطانهم وجبروتهم وعتوهم؟! فالعزة المَنَعة، فأين ما يمنع عنهم العذاب؟!

وإنما يمنع العذاب ويصرفه الله بعزته، ويصرف أسبابه بعزته، فالعزيز منيع الجانب، ومن أعزه الله تعالى منع عنه ما يضره ودفع عنه كل هُونٍ ومذلة، وأي مذلة وأي إهانة للعبد أعظم من عذاب الله وأسبابه من الكفر والضلال؟! الذي اختاره المعاندون المستكبرون المكذبون دون غيرهم من المخلوقات كلها، التي خضعت وأذعنت وانقهرت لعزة الله تعالى! فيا ذلتهم بمعصية الله تعالى! ويا هوانهم بعذابه!

قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا

﴿لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾ [الحج:١٨].

لذا جاءت الاستعاذة من العذاب ومن الضلال ـ في بعض ما ورد عن النبي ﷺ ـ بعزة الله سبحانه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ قَالَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي كَفَانِي وَآوَانِي، الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي وَسَقَانِي، الْحَمْدُ للهِ الَّذِي مَنَّ عَلَيَّ فَأَفْضَلَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِعِزَّتِكَ أَنْ تُنَجِّيَنِي مِنَ النَّارِ، فَقَدْ حَمِدَ اللهَ بِجَمِيعِ مَحَامِدِ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ كان يقول:

«اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ»(٢).

فالمؤمن هو العزيز في الآخرة، نجا من العذاب وفاز بالثواب، وأي ثواب؟! نعيم أبدي، وسَعْد سرمدي، رُفقةَ النبيين والشهداء والصالحين، في جنة عرضها السموات والأرض، فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، قد حل على أصحابها رضوان الله تعالى، وسلم عليهم، ورفع الحجاب دونهم، فرأَوْه وتلذذوا بالنظر إلى وجهه الكريم، وسماع كلامه العظيم، فطوبى لهم ثم طوبى وطوبى!

وقال الله تعالى: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ۞ ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ۞ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ۞ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ۞ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ۞ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ۞

---

(١) أخرجه الحاكم (١/٥٤٥ - ٥٤٦) وغيره. وهو في «السلسلة الصحيحة» (رقم ٣٤٤٤).

(٢) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا * خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٠-١٠٨].

قال ابن سعدي: «وأي: ضيافة أجل وأكبر وأعظم من هذه الضيافة؟! المحتوية على كل نعيم للقلوب والأرواح والأبدان، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، من المنازل الأنيقة، والرياض الناضرة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة المشجية، والمآكل اللذيذة، والمشارب الشهية، والنساء الحسان، والخدم والولدان، والأنهار السارحة، والمناظر الرائقة، والجمال الحسي والمعنوي، والنعمة الدائمة، وأعلى ذلك وأفضله وأجله التنعم بالقرب من الرحمن ونيل رضاه، الذي هو أكبر نعيم الجنان، والتمتع برؤية وجهه الكريم، وسماع كلام الرؤوف الرحيم، فلله تلك الضيافة، ما أجلها وأجملها وأدومها وأكملها! وهي أعظم من أن يحيط بها وصف أحد من الخلائق، أو تخطر على القلوب.

فلو علم العباد بعض ذلك النعيم علمًا حقيقيًّا يصل إلى قلوبهم لطارت إليها قلوبهم بالأشواق، ولتقطعت أرواحهم من ألم الفراق، ولساروا إليها زرافاتٍ ووحدانًا، ولم يُؤْثروا عليها دنيا فانية، ولذات منغصة متلاشية، ولم يُفَوِّتوا أوقاتًا تذهب ضائعة خاسرة، يقابل كل لحظة منها من النعيم من الحِقَب آلاف مؤلفة، ولكن الغفلة شملت، والإيمان ضعف، والعلم قل، والإرادة وهت فكان ما كان، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

وقال ابن كثير: «وفي قوله: ﴿**لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلًا**﴾ تنبيه على رغبتهم فيها، وحبهم لها، مع أنه قد يُتوهم فيمن هو مقيم في المكان دائمًا أنه يسأمه أو يمله، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدي لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولًا ولا انتقالًا ولا ظعنًا ولا رحلة ولا بدلًا». اهـ.

وقال تعالى: ﴿ **يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا**

﴿وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۞ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ۞ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۞ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۞ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ [الزخرف:٦٨-٧٣].

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال:

«يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا. فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف:٤٣]»[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ، مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، ذُخْرًا، بَلْهَ مَا أَطْلَعَكُمُ اللهُ عَلَيْهِ». ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ [السجدة:١٧][(٢)].

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال:

«سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ، مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ، وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ؟! فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ. فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ، وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ. فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ. فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٣٧)، وغيره.

(٢) متفق عليه. ومعنى: (ذُخْرًا)؛ أي: جَعلتُ ذلك لهم مذخورًا. و(بَلْهَ مَا أَطْلَعَكُمُ اللهُ عَلَيْهِ) معناه: دع عنك ما أطلعكم الله عليه، فالذي لم يطلعكم عليه أعظم. فإن أضيفت «مِنْ» في أول الكلام؛ أي: «مِنْ بَلْهِ مَا قَدْ أَطْلَعَكُمُ اللهُ عَلَيْهِ» ـ كما في «سنن ابن ماجه» (٤٣٢٨) ـ كان المعنى: من غير ما أطلعكم الله عليه. وانظر «الفتح» (٥١٦/٨-٥١٧).

وَلَذَّتْ عَيْنُكَ. فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ.

قَالَ: رَبِّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ، غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ».

قال: «وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧]. الآية[١]»[٢].

فأي عِزٍّ أعظم من هذا؟! وأي شرف أرفع منه؟! وأي نُزُلٍ أكرم منه؟!

فيا عِزّ من اعتز بالله وذَلّ له وأطاعه، فرضي الله عنه وأرضاه، وأدخله دار كرامته، وأحله منزل ضيافته! فيا طالب العز أقبل! ويا طالب الذل أقصر! ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت:٤٦].

وهذا باب يطول جدًّا، فالآيات والأحاديث الدالة على عزة المؤمنين وكرامتهم في الآخرة وذلة الكافرين ومهانتهم لا يمكن استيعابها.

التواضع لله عز وجل

فيا من أعزه الله في دينه بالإسلام، ورفعه بالإيمان، وأعلى شأنه بصالح الأعمال، وأعزه في دنياه فأسبغ عليه النِّعم، ودفع عنه النِّقم، وآتاه من أسباب العزة من الأموال والأولاد والجند والحشم، والدور والقصور والمراكب والخدم، تواضعْ لله عز وجل، واشكره على عطائه وأياديه، واستعمل ما أولاكه في طاعته ومراضيه، ووالِ أولياءه، وعادِ أعداءه، ولا تغرنك الدنيا بزخرفها ومتاعها، وملكها وسلطانها، فتفخر وتتكبر، وتختال وتتبختر، وتنسى أنك عبد لله تعالى، وهو الذي أعطاك وأعزك، ولو شاء حرمك وخفضك.

---

(١) وتمامها: ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٩) وغيره.

واعتبر بحال ملك ملوك الدنيا، وأوسعهم ملكًا، وأعزهم سلطانًا، وأكثرهم جندًا، نبي الله سليمان، عليه الصلاة والسلام، وحاله مع ملكة سبأ، وماذا قال لما ظهرت عظمته في أَوْجِها بإحضار عرشها في طرفة عين، قال الله عز وجل: ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ * قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ * قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ * وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ * فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ * ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ * قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ * قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل:٣٢-٤٠].

فلم يغتر بملكه، ولم تستخفه النعمة، ولم تأخذه العزة! فهكذا ينبغي أن يكون مَنْ دونه من ملوكٍ وسلاطين، من باب أولى وأحرى! فكيف بمَنْ دونهم؟!

وحالِ كليم الله عليه الصلاة والسلام لما غفر الله له قتلَه الرجل، وأنعم عليه بالنعم الكثيرة، قال سبحانه: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص:١٧].

قوله: ﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾، قال ابن كثير: «أي: بما جعلت لي من الجاه والعزة والمَنَعَة، ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾؛ أي: معينًا، ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: الكافرين بك، المخالفين لأمرك». اهـ.

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ * ٱلَّذِينَ إِن

﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج:٤٠-٤١].

ومن تواضع لله تعالى رفعه، ومن ذل له أعزه، فعز الدنيا والآخرة بيده، يعز من يشاء، ويذل من بشاء، وهو العزيز الحكيم، العليم الخبير، يضع الأمور مواضعها، ويعطيها من يستحقها.

قال الله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال:

«مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ»(١).

قال النووي: «قوله ﷺ: (مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ)، ذكروا فيه وجهين؛ أحدهما: معناه أنه يبارك فيه ويدفع عنه المضرات، فينجبر نقص الصورة بالبركة الخفية، وهذا مدرك بالحس والعادة، والثاني: أنه وإن نقصت صورته كان في الثواب المرتب عليه جبر لنقصه وزيادة إلى أضعاف كثيرة.

قوله ﷺ: (وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا)، فيه أيضا وجهان؛ أحدهما: أنه على ظاهره، وأن من عُرِف بالعفو والصفح ساد وعظم في القلوب، وزاد عزه وإكرامه، والثاني: أن المراد أجره في الآخرة وعزه هناك.

قوله ﷺ: (وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ)، فيه أيضًا وجهان؛ أحدهما: يرفعه في الدنيا ويُثْبِت له بتواضعه في القلوب منزلة، ويرفعه الله عند الناس ويجل مكانه، والثاني: أن المراد ثوابه في الآخرة ورفعه فيها بتواضعه في الدنيا.

---

(١) أخرجه مسلم وغيره.

قال العلماء: وهذه الأوجه في الألفاظ الثلاثة موجودة في العادة معروفة. وقد يكون المراد الوجهين معًا في جميعها في الدنيا والآخرة، والله أعلم». اهـ.

السجود

وأعظم ما يكون العبد من التواضع لله تعالى والذل له حال السجود، إذ هو في هيئةٍ أذل ما يكون فيها لله عز وجل، فوجهه وأنفه على الأرض، وهو ذليل منكسر منخفض، ثم إذا أضيف إلى ذلك كونه يدعو، ازداد ذلًّا وافتقارًا فوق ذله، إذ أن الدعاء عنوان العبودية والذل والافتقار والخضوع والحاجة إلى الرب العلي العظيم سبحانه، وبالتالي أعظم ما يكون من الرفعة والعزة وهو كذلك.

وقال تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق:١٩].

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

«أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ»(١).

ومن كان لله تعالى أقرب كان عنده أعز وأرفع.

وعن مَعْدَانَ بن أبي طلحة الْيَعْمَرِيِّ قال: لقِيت ثَوْبَانَ مولى رسول الله ﷺ، فقلت: أخبرني بعمل أعمله يدخلني الله به الجنة؟ أو قال: قلت: بأحب الأعمال إلى الله، فسكت. ثم سألته، فسكت. ثم سألته الثالثة، فقال: سألت عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال:

«عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ لِلَّهِ، فَإِنَّكَ لَا تَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً، إِلَّا رَفَعَكَ اللهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةً».

قال مَعْدَانُ: ثم لقِيت أبا الدرداء، فسألته، فقال لي مثل ما قال لي ثوبان(١).

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢) وغيره.

هذا، والسجود أعظم أركان الصلاة الفعلية، كما قال شيخ الإسلام[٢].

فصل

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾؛ أي: وكل من يمكر ويكيد السيئات بالمؤمنين من المشركين والمنافقين وغيرهم، ويبتغي بفعل ذلك الإضرار بهم والعزة والرفعة لنفسه، فإنه لن ينال مراده، ومكره سيبطل، وسينقلب عليه، وسيعاقب عليه في الدنيا والآخرة.

كما قال الله تعالى في يهود بني النضير: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ۝ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٢-٤].

فانظر كيف أذلهم الله وعاقبهم، وأتاهم العذاب من حيث لم يحتسبوا، فقذف في قلوبهم الرعب، وهو سبب وجند من الله ينصر به المؤمنين، بما لا قوة لهم في تحصيله، ولا حيلة لعدوهم في رده ودفعه، وخربوا بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، فلم تنفعهم عزتهم، ولم تحمهم قوتهم وشدتهم، ولا حصنتهم حصونهم، التي ظنوا أنها مانعتهم من الله ومن بأسه! فخرجوا ذليلين مهانين حقيرين!

فمن اعتز بشيء من دون الله تعالى خذله الله من جهته، وسُقِط في يده من قِبَله، ومن اعتز بالله منعه ونصره، ولو دون إعداد منه ولا جهد ولا خيل ولا ركاب، كما هو الشأن بالنصر بجند الله الأكبر؛ الرعب! كما قال تعالى بعدها:

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٨) وغيره.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٦/١٩٤).

﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [الحشر:٦].

قوله تعالى: ﴿ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾؛ أي: ما أجلبتم ولا سقتم ولا حشدتم عليه من خيل ولا إبل، ولا أسرعتم بها، ولا سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا، وإنما هو رزق ساقه الله إليكم، ومكنكم منه دون عناء، وذلك بتسليط رسوله ﷺ عليهم، وأخذه ما بأيديهم، ونصره عليهم بالرعب، وكفى الله المؤمنين القتال.

وقال سبحانه عن مشركي قريش والعرب: ﴿ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا * ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴾ [فاطر:٤٢-٤٣].

وقال تبارك وتعالى في الذين من قبلهم: ﴿ قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [النحل:٢٦]. الآيات.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ * فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ﴾ [إبراهيم:٤٦-٤٧]. إلى أن قال سبحانه: ﴿ وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [إبراهيم:٤٩-٥٠].

فانظر ما أفظعه من عذاب! وما أشده من هوان!

وقال سبحانه في خبر ثمود قوم صالح عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَكَانَ فِي

ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ * قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ * وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ * فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ * فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ * وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [النمل:٤٨-٥٣].

وقال سبحانه عن قوم نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿ قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا * وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا * وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا * وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا * مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ﴾ [نوح:٢١-٢٥].

وقال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ * وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٣-١٢٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ * لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴾ [الرعد:٣٣-٣٤].

وهذه العقوبات الواقعة على الماكرين الظلمة المتقدمين ليست ببعيدة من إخوانهم وأشباههم من المتأخرين، الذين ما فتئوا يمكرون بأهل الإسلام، ويكيدون لهم ليل نهار، ويحوكون المؤامرات في كل أوان، ويدبرون الخُطَط، ويستعينون على مكرهم بأبناء جلدة المسلمين، من الجهلة في الدين، بل ومن

العالِـمين فيه، الذين باعوا دينهم بعَرَض من الدنيا، فأخذوا يُحْكِمون معهم الحِيَل، ويُبرمون الأمور، بشتى الوسائل الممكنة، فلم يَرْقُبوا في المؤمنين إلًّا ولا ذمة، ولا خافوا مكر الله، ولا اتعظوا بمن سبقهم، وما علموا أن سنة الله لا تتبدل، وسنة الله لا تتحول، وأن الله عز وجل لا يُسْلِم المؤمنين إلى عدوهم، ولا يَترك مكرَهم يَعمل فيهم، وسينقلب السحر على الساحر، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾.

○○○○○

اسم الله العزيز

معنى اسم الله العزيز:

العزيز في كلام العرب: من عَزّ يعِز ويعَزّ ويعُزّ، بالفتح للمضارع والكسر والضم. وبالفتح (يعَزّ): اشتدّ وقَوِي، و﴿فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ﴾ [يس:١٤]: شَدَّدْنا وقَوَّيْنا. وبالكسر: قوي وامتنع. وبالضم: غَلَبَ وقَهَر، ومنه: «مَنْ عَزّ بَزّ»؛ أي: من غَلَبَ سَلَب. ومنه: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾ [ص:٢٣]؛ أي: غلبني وقهرني.

إذًا هذه ثلاثة معانٍ للعزة: الشدة والقوة. والمَنَعَة[١]. والغلبة والقهر.

وهناك معنًى **رابع**: الجلال والعظمة والشرف والمجد والعلو والكبرياء[٢].

وفي الحديث: عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ:

«الْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ»[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»[٤].

وهذه المعاني كلها موجودة في ضمن معنى المَنَعَة، فإن العزيز المنيع: الذي لا يُغلب ولا يُقهر؛ لقوته وشدته وعظمته، وعلوه وكبريائه، وقهره وغلبته لكل

(١) وفي المَثَل: أعَزُّ من بَيْض الأَنُوقِ، لأنه من الصعب الوصول إليه والظفر به، لوجوده في الأماكن الوَعْرة. وفي المَثَل: أعَزُّ من كُلَيْب، وهو الملك وائل بن ربيعة التغلبي أخو مهلهلٍ الزيرِ سالم، لأنه كان لا يصل أحد إليه، ولا يجرؤ أحد أن يقترب من شيء حماه، من كلأ أو ماء أو غيره.

(٢) وضد هذه المعاني: الضعف والذلة والمهانة والصّغَار والسُّفُول.

(٣) أخرجه مسلم وغيره.

(٤) أخرجه ابن داود (٤٠٩٠) وغيره، وصححه الألباني.

مَنْ سواه.

من أجل ذلك قالوا في تفسير «العزيز»: المنيع الذي لا يُنال ولا يُغالب.

وثَمَّ معنًى **خامس**، وهو: نفاسة القدر، وانعدام النظير، وندارة الوجود: عزّ يَعِزّ، عزّ الطعام وعزّ الشيء: نَدَرَ ونَفَس، حتى صار لا يُقْدَر عليه، من النفاسة؛ أي: عظمت قيمته.

وهذه المعاني الخمسة كلها صحيحة في حق الله عز وجل، فله سبحانه: **عزة الامتناع، وعزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة العظمة والشرف والرفعة، وعزة انقطاع النظير وانعدام المثيل**، فهو الله الواحد الأحد، لا إلٰه إلا هو، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]. ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠].

قلت: فهذا زبدة الكلام وما يستفاد من الأئمة الأعلام في معنى اسم الله «العزيز»، حررته لمبتغيه تحريرًا، وقربته لمريده تقريبًا، ولم أجد من دونه هكذا، إلا ما كان من الزجاجي رحمه الله، فقال ـ لله دره! ـ مودعًا في «الاشتقاق»[(١)] نحو ما ذكرناه:

«العزيز في كلام العرب على أربعة أوجه، العزيز: الغالب القاهر، والعزة: الغلبة، والمعازّة: المغالبة. ومنه قوله عز وجل: {﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٣]، أي: غلبني في محاورة الكلام، ومنه قولهم: «مَنْ عَزّ بَزّ»: أي من غلب سلب.

والعزيز: الجليل الشريف، ومنه قولهم: «إذا عز أخوك فهن». وقولهم: «فلان يعتز بفلان»؛ أي يتجالل به ويتشرف ويتكبر. وكذلك قوله عز وجل: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨]؛ أي: ليخرجن الجليل الشريف منها الذليل.

(١) (ص ٢٣٧-٢٤٠) مختصرًا.

والوجه الثالث: أن يكون العزيز بمعنى: القوي، يقال: «عز فلان بعد ضعف»؛ أي قَوِيَ، يعَز عزًا، و «أعزه الله بولده»؛ أي: قوّاه بهم. كذلك حكى الخليل عن العرب.

والوجه الرابع: أن يكون العزيز بمعنى: الشيء القليل الوجود المنقطع النظير، يقال: «عز الشيء عِزَةً، فهو عزيز»: غير موجود.

فهذه أربعة أوجه في العزيز، يجوز وصف الله عز وجل بها، يقال: «الله العزيز»: بمعنى: الغالب القاهر. و«الله العزيز»؛ أي: هو الجليل العظيم. و«الله العزيز»: بمعنى القوي. و«الله العزيز»؛ أي: هو غير موجود النظير والمِثْل جل وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا.

وأصل هذا كله في اللغة راجع إلى الشدة والامتناع، لا يخرج شيء منه عن ذلك، وهو مأخوذ من قولك: «أرض عَزَازٌ»: إذا كانت صلبة لا يعلوها الماء، كذلك يقول الخليل». اهـ.

وقال ابن القيم رحمه الله[1]: «والعزة يراد بها ثلاثة معان: عزة القوة، وعزة الامتناع، وعزة القهر، والرب تبارك وتعالى له العزة التامة بالاعتبارات الثلاث، ويقال من الأول: عزّ يعَز بفتح العين في المستقبل، ومن الثاني: عز يعِز بكسرها، ومن الثالث: عز يعُز بضمها، أعطَوْا أقوى الحركات لأقوى المعاني، وأخفها لأخفها، وأوسطها لأوسطها.

وهذه العزة مستلزمة للوحدانية، إذ الشركة تنقص العزة، ومستلزمة لصفات الكمال؛ لأن الشركة تنافي كمال العزة، ومستلزمة لنفي أضدادها، ومستلزمة لنفي مماثلة غيره له في شيء منها».

وقال:

(١) «مدارج السالكين» (٢٤١/٤-٢٤٢).

وهــو العزيــز فلــن يُــرام جَنابُــهُ | أنى يُــرام جَنــابُ ذي الســلطانِ
وهــو العزيــز القــاهر الغــلاب لــمْ | يغلبْــــه شيءٌ هــــذه صــــفتانِ
وهـــو العزيـــز بقـــوةٍ هي وصـــفهُ | فـــالعِزُّ حينئـــذ ثـــلاثُ معـــانِ
وهي الـــتي كملـــتْ له ســـبحانهُ | مـــن كل وجـــه عادمِ النقصـــانِ

وقال ابن سعدي شارحًا الأبيات: «فمعاني العزة الثلاث كلها كاملة لله العظيم:

عزة القوة: الدال عليها من أسمائه القوي المتين، وهي وصفه العظيم الذي لا تُنسب إليه قوة المخلوقات وإن عَظُمَتْ.

وعزة الامتناع: فإنه هو الغني بذاته فلا يحتاج إلى أحد، ولا يبلغ العباد ضره فيضرونه، ولا نفعه فينفعونه، بل هو الضارّ النافع، المعطي المانع.

وعزة القهر والغلبة لكل الكائنات: فهي كلها مقهورة لله، خاضعة لعظمته، منقادة لإرادته، فجميع نواصي المخلوقات بيده، لا يتحرك منها متحرك ولا يتصرف متصرف إلا بحوله وقوته وإذنه، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا به»[(١)].

معاني كلمة «عزيز» الواردة على غير اسم الله في بعض الآيات:

قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود:٩١].

قال الطبري: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾؛ يعنون: ما أنت ممن يكرم علينا، فيَعْظُم علينا إذلالُه وهوانه، بل ذلك علينا هيّن.

وقال ابن عاشور: «فمعنى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾؛ أنك لا تستطيع غلبتنا». اهـ

(١) «الحق الواضح المبين» (ص ٤٤-٤٥).

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾؛ أي: شديد عليه.

ارحموا عزيز قوم ذل:

انتشرت هذه الكلمة بين الناس حتى صارت كالمَثَل المشتَهِر، ونُسِبَتْ إلى النبي ﷺ، وهي مكذوبة عليه ﷺ! ذكرها ابن الجوزي في «الموضوعات»، ثم قال: «وإنما يُعرف هذا من كلام الفضيل بن عياض».

ورود اسم الله العزيز

ورد اسم الله «العزيز» في القرآن الكريم تسعًا وثمانين مرة؛ معرفًا بـ «أل» ستين مرة، ودونها تسعًا وعشرين مرة، وسأذكر بعض الآيات التي ذُكِر فيها، ووجه وروده فيها، ومناسبة اقترانه بغيره من أسماء الله تعالى[١]، وغير ذلك.

العزيز الحكيم:

قال الله تعالى حاكيًا عن دعاء خليله إبراهيم وولده إسماعيل عليهما

---

(١) فإن لاقتران أسمائه سبحانه ببعضها شأن عظيم، فمن ذلك ما ينتج عنه من معنًى ثالث يتألف من اجتماع الاسمين، فهو كمال وعظمة في اجتماع الاسمين مضاف إلى الكمال الذي في كل اسم بانفراده، فسبحان العلي العظيم! وسيظهر في هذا الفصل المقصود من كلامنا هذا، ولعله من أهم ما دونته في كتبي، فليَعَضّ عليه اللبيب بالنواجذ، **ولْيَقِس عليه غيره من الأسماء**، وليتعبد السالك لله عز وجل بالأسماء المقترنة كما يتعبد له بالأسماء المفردة، وليجعل ذلك فتحًا جديدًا له في هذا الباب، وليحمد الله الذي ساقه إليه، دون جهد ولا تعب، فله الفضل والمنة.

قال ابن القيم: «فائدة جليلة: ما يجري صفة أو خبرًا على الرب تبارك وتعالى أقسام: ... . السادس: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على مفرديهما، نحو: الغني الحميد، العفو القدير، الحميد المجيد، وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة في القرآن، فإن الغِنى صفة كمال والحمد كذلك، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر، فله ثناء من غناه، وثناء من حمده، وثناء من اجتماعهما، وكذلك العفو القدير، والحميد المجيد، والعزيز الحكيم، فتأمله! فإنه من أشرف المعارف».

الصلاة والسلام، (وهي أول آية ذكر فيها اسم «العزيز»): ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة:١٢٩].

فالعزيز: القوي الذي لا يمتنع عليه شيء، ولا يعجزه شيء، والحكيم: الذي يحكم الأمور، ويضع الأشياء مواضعها، يعني: لأنك كذلك، فبعزتك وحكمتك ابعث فيهم رسولًا ...

قال ابن جرير: «يعني تعالى ذكره بذلك: إنك يا رب أنت «العزيز»: القوي الذي لا يعجزه شيء أراده، فافعل بنا وبذريتنا ما سألناه وطلبناه منك، و«الحكيم»: الذي لا يدخل تدبيره خلل ولا زلل، فأعطنا ما ينفعنا وينفع ذريتنا، ولا ينقصك ولا ينقص خزائنك».

واقترن اسم العزيز» باسم «الحكيم» سبعًا وأربعين مرة!! مُعَرَّفَيْن تسعة وعشرين مرة! ودون ال التعريف ثماني عشرة مرة!

ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:١٨].

فالله سبحانه لا إلٰه إلا هو، ، وهو الذي ينبغي أن يعبد وحده، وهو الآمر الناهي، والكل تحت قهره وقوته مغلوب مربوب (فإنه العزيز)، لكنه سبحانه لا يظلم أحدًا، ويقوم على عباده بالقسط، ويضع الأشياء مواضعها، فقرن العزة بالحُكم والحِكمة المتضمنة للقسط والعدل، فهو عزيز في حكمه وحكمته؛ يأمر وينهى، ويثيب ويعاقب، ويحب المطيع ويكره العاصي، دون حاجة له في عباده، بل هو عزيز غالب قوي غني منيع الجانب، لا يصلون إليه بنفع ولا ضر.

ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ وَلَهُ

ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [الجاثية:٣٦-٣٧].

وفي الحديث: عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: عَلِّمْني كلامًا أقوله. قال:

«قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالْحَمْدُ للهِ كَثِيرًا، [وَ]سُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، [وَ]لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ [الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ]، الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ».

قال: فهؤلاء لربي، فما لي؟ قال:

«قُلِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَاهْدِنِي، وَارْزُقْنِي»(١).

العزيز الرحيم:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةًۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء:٨-٩]

تكررت هاتان الآيتان في سورة الشعراء ثماني مرات، وجاءت في كل مرة ختمًا لتهديدِ أو عقوبةِ الأقوام المكذبة للرسل.

والعزيز: القوي العظيم القدير القهار الذي لا يُغالَب ولا يعانَد، فجاء اسم العزيز لتهديد المعاندين وتوعدهم، ولا يعني هذا أنه سبحانه لا يرحم! فاقترن باسم الرحيم، فبرحمته سبحانه بَيّن لهم الهدى، ولم يعاجلْهم بالعقوبة، وبرحمته أنجى الرسل وأتباعهم، ونَصَر المؤمنين.

ولأن رحمته ليست عن ضعف أو عدم قدرة قرنها سبحانه بعزته! وأعظم ما تكون الرحمة إذا كانت عن قدرة.

فتأمل هنا ما أحكم وما أنسب اقتران الاسمين!!

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٦)، وابن حبان (٩٤٢)، والزيادات له، وغيرهما.

وأسرار اقترانهما يطول شرحها وبيانها.

وفي نفس السورة: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۝ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الشعراء:٢١٧-٢٢٠].

التوكل: هو اعتماد العبد على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار الدينية والدنيوية، مع الثقة بالله تعالى وبكفايته في حصول ما هو خير للعبد في دينه ودنياه وآخرته.

ويستلزم ذلك الإيمان بقدرة الله تعالى ومشيئته، وأن الأمور كلها بيده، وأن خزائن السموات والأرض لا يملكها إلا هو، ولا يعطيها إلا هو، فلا حول ولا قوة إلا به سبحانه.

والعزيز: القوي القدير الغالب منيع الجانب، فبعزته سبحانه يحفظ عبده، ويدفع عنه، ويوصل له الخير، وينصره ويرفعه، وهذا من رحمته به، فهو العزيز الرحيم.

قال ابن سعدي: «فإنه عزيز رحيم، بعزته يَقْدر على إيصال الخير ودفع الشر عن عبده، وبرحمته به يفعل ذلك».

وقال سبحانه: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الروم:٥].

فبعزته سبحانه وقوته وقدرته ينصر من يشاء من عباده، ويمكن لمن يشاء في الأرض، ويؤتي ملكه من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ويرفع أقوامًا ويخفض آخرين، وبرحمته يرحم عباده المؤمنين، فينصرهم، ويفرحهم بنصره، ويمكنهم من عدوهم، ويشفي صدورهم، ويذهب غيظ قلوبهم، فما أجل وأنسب اقتران اسم العزيز هنا بالرحيم، فسبحان من جعل كلامه مدهشًا للعقول!

واقترن اسم «العزيز» باسم «الرحيم» في كتاب الله عز وجل ثلاث عشرة مرة.

العزيز العليم:

قال تعالى: ﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ [الأنعام:٩٦].

قال ابن سعدي: ﴿ذَٰلِكَ ﴾ التقدير المذكور ﴿تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾، الذي من عزته انقادت له هذه المخلوقات العظيمة، فجرت مذللة مسخرة بأمره، بحيث لا تتعدى ما حده الله لها، ولا تتقدم عنه ولا تتأخر. ﴿ٱلۡعَلِيمِ ﴾، الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن والأوائل والأواخر، ومن الأدلة العقلية على إحاطة علمه: تسخير هذه المخلوقات العظيمة على تقدير ونظام بديع، تحيُّرُ العقول في حسنه وكماله وموافقته للمصالح والحكم».

وقال ابن عاشور: «والعزيز: الغالب، القاهر، والله هو العزيز حقًّا، لأنه لا تتعاصى عن قدرته الكائنات كلها. والعليم: مبالغة في العلم، لأن وَضْع الأشياء على النظام البديع لا يصدر إلا عن عالم عظيم العلم».

وقال سبحانه: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ [يس:٣٨].

وقال سبحانه: ﴿ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ * ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ * فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ [فصلت:٩-١٢].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [الزخرف:٩].

واقترن اسم الله «العزيز» باسم «العليم» ست مرات.

القوي العزيز:

قال تعالى عن ثمود قوم صالح عليه الصلاة والسلام وعقرهم الناقة: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴾ [هود:٦٥-٦٨].

مناسبة اقتران اسم القوي هنا بالعزيز أشد ما تكون، فإن المقام مقام قوة واقتدار وقهر وغلبة، وعذاب شديد، وعقوبة على عصيان وتكذيب، مسبوق بالتهديد والوعيد، فلم يستجيبوا ولم يكترثوا، فأخذتهم الصيحة فأصبحوا خامدين هالكين، ذليلين مقهورين، ورغم أنه سبحانه ذكر قبلُ إنجاءَ المؤمنين برحمته، إلا أن اقتران القوي بالعزيز أنسب من اقترانه بالرحيم (كما في «الشعراء»)، فإن هول العذاب هنا جاء موضحًا[١] مناسبًا لما يقابله من التكذيب المصاحب لقتل ناقة الله تعالى، فناسب ذكر اسم القوي وإتباعه بالعزيز، فسبحان الله رب العالمين!

وقال سبحانه: ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج:٤٠].

قال ابن جرير: «قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾، يقول تعالى ذكره: إن الله

---

(١) أعني: الخزي والصيحة وحالهم بعدها.

﴿لَقَوِيٌّ﴾ على نصر من جاهد في سبيله من أهل ولايته وطاعته، ﴿عَزِيزٌ﴾ في ملكه، يقول: منيع في سلطانه، لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب».

وقال سبحانه في نفس السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ۞ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٧٣-٧٤].

قال ابن جرير: قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، يقول: إن الله ﴿لَقَوِيٌّ﴾ على خلق ما يشاء من صغيرِ ما يشاء من خلقه وكبيره، ﴿عَزِيزٌ﴾، يقول: منيع في ملكه لا يقدر شيء دونه أن يسلبه من ملكه شيئًا، وليس كآلهتكم، أيها المشركون الذين تدعون من دونه الذين لا يقدرون على خلق ذباب، ولا على الامتناع من الذباب، إذا استلبها شيئًا، ضعفًا ومهانة».

وقال سبحانه: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ۞ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ۞ وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا﴾ [الأحزاب:٢٥-٢٧].

هذا يوم الأحزاب، يوم الخندق، قال ابن سعدي: «﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗا﴾؛ أي: ردهم خائبين، لم يحصل لهم الأمر الذي كانوا حنقين عليه مغتاظين، قادرين عليه، جازمين بأن لهم الدائرة، قد غرتهم جموعهم، وأُعجبوا بتحزبهم، وفرحوا بعَدَدهم وعُدَدهم، فأرسل الله عليهم ريحًا عظيمة، وهي ريح الصبا، فزعزعت مراكزهم، وقوَّضت خيامهم، وكفَأت قدورهم،

وأزعجتهم، وضربهم الله بالرعب، فانصرفوا بغيظهم، وهذا من نصر الله لعباده المؤمنين، {﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾، بما صنع لهم من الأسباب العادية والقدرية، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾، لا يغالبه أحد إلا غُلِبَ، ولا يستنصره أحد إلا غَلَبَ، ولا يُعجزه أمر أراده، ولا ينفع أهل القوة والعزة، قوتهم وعزتهم إن لم يُغِنْهم بقوته وعزته». اهـ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان يقول

«لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، أَعَزَّ جُنْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَغَلَبَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ، فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ»(١).

العزيز الغفار:

قال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۞ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾ [ص:٦٥-٦٦].

جاءت هذه الآيات بعد ذكر أصناف من نعيم أهل الجنة المعدّ للمتقين المطيعين لله تعالى، وأصناف من عذاب أهل النار المعدّ للطاغين العاصين لله عز وجل، فيقول سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۞ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾، فهو العزيز القوي المقتدر على الانتقام ممن لم يستجب للإنذار، الغفار لمن استجاب له فتاب واستغفر وأناب، فترهيب تلاه ترغيب، وفتح لباب الغفران!

وقال سبحانه: ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۞ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى

(١) متفق عليه.

ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ [الزمر:٤-٥].

قال ابن جرير: «﴿أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾، يقول تعالى ذكره: ألا إن الله الذي فعل هذه الأفعال وأنعم على خلقه هذه النعم هو ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ في انتقامه ممن عاداه، ﴿ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ لذنوب عباده التائبين إليه منها بعفوه لهم عنها».

ولاحظ هاتين الآيتين التي ورد فيهما اقتران اسمَي «العزيز الغفار»: كيف سبق فيهما اقتران اسمَي «الواحد القهار»! فلا أحد يستحق أن يعبد وأن يطاع وتنقهر له المخلوقات بالعبودية والطاعة، إلا الله الواحد القهار، ومن معاني اسم اسم العزيز ـ كما تقدم ـ الذي عز كلَّ شيء فقهره وغلبه!

قال الزَّبيدي في «التاج»: «والعزيز كأمير: المَلِك، مأخوذ من العِز، وهو الشدة والقهر، وسُمِّي به لغلبته على أهل مملكته». اهـ.

وفي الحديث: عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا تَضَوَّرَ(١) من الليل قال:

«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ، رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ»(٢).

وقال تعالى حاكيًا عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۞ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ [غافر:٤١-٤٢].

يقول: يا قوم أنا أدعوكم إلى النجاة، وأنتم تدعونني إلى النار، تدعونني

---

(١) أي: تلوّى وتقلب.

(٢) أخرجه ابن حبان (٢٣٥٨ - موارد) وغيره. وهو في «الصحيحة» (٢٠٦٦).

لأكفر بالله وأشرك به ما لا ينفعني ولا يضرني، لا في الدنيا ولا في الآخرة، أما أنا فأدعوكم إلى العزير المنيع الجانب القوي الشديد، الذي يقدر على حماية ومنع من آمن به، ويقدر على مغفرة ذنوبه، ويقدر على عقابكم في الدنيا والآخرة، وليس لكم من دونه من يمنعكم أو يدفع عنكم، لا فرعون الذي تعتزون به ولا غيره، وهو الغفار لكل من تاب إليه، مهما كانت ذنوبه كثيرة، فكأنه يقول: هَلُمُّوا إلى العزيز الغفار، وقد تحقق ما اعتقد: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٥].

العزيز الحميد:

قال تعالى: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم:١].

﴿ ٱلۡعَزِيزِ ﴾: القاهر الغالب الذي يفعل ما يشاء من إيصال الهداية إلى الناس ونصر دينه، وتحكيم شرعه، وإتمام نوره، ولو كره الكافرون، وهو ﴿ ٱلۡحَمِيدِ ﴾: الذي له الثناء على كل ما يفعله ويشرّعه، وله الشكر على ما أنعم به على عباده، من إنزال كتابه على نبيه ﷺ، وهدايتهم وإخراجهم على يديه من الظلمات إلى النور.

قال ابن كثير: «﴿ ٱلۡعَزِيزِ ﴾؛ أي: العزيز الذي لا يمانع ولا يغالب، بل هو القاهر لكل ما سواه، ﴿ ٱلۡحَمِيدِ ﴾؛ أي: المحمود في جميع أفعاله وأقواله، وشرعه، وأمره ونهيه، الصادق في خبره». اهـ.

وقال تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ [سبأ:٦].

وقال سبحانه: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۞ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۞ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ۞ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ

ٱلۡأُخۡدُودِ ❄ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ❄ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ❄ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ❄ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ❄ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾ [البروج:١-٩].

هذا، وإذا عرفتَ معاني ألفاظ أسماء الله تعالى، وأثبت له تعالى كل ما تحتمله من المعاني الصحيحة الحسنة، وأثبتها على أكمل وجه وأتمه، فإنه في الغالب لن تفوتك معرفة وجه اقتران الأسماء ببعضها، ووجه مناسبتها لموضوع الآية وسياقها، إلا أنك تحتاج مع ذلك إلى مزيد تأمّلٍ وتدبر، وبالله التوفيق.

عزيز ذو انتقام:

وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [المائدة:٩٥].

وقال: ﴿ فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ﴾ [إبراهيم:٤٧].

وقال: ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ❄ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ ﴾ [الزمر:٣٦-٣٧].

وقال تعالى: ﴿ الٓمٓ ❄ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ❄ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ❄ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [آل عمران:١-٤].

ووجه اقتران اسم «العزيز» بقوله: «ذو انتقام» واضح جلي، قال ابن جرير: «يعني: إن الذين جحدوا ذلك الفصل والفرقان الذي أنزله فرقًا بين المحق والمبطل ﴿ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴾، وعيدٌ من الله لمن عاند الحق بعد وضوحه له، وخالف

سبيل الهدى بعد قيام الحجة عليه، ثم أخبرهم أنه ﴿عَزِيزٌ﴾ في سلطانه، لا يمنعه مانع ممن أراد عذابه منهم، ولا يحول بينه وبينه حائل، ولا يستطيع أن يعانده فيه أحد، وأنه ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ ممن جحد حججه وأدلته بعد ثبوتها عليه، وبعد وضوحها له ومعرفته بها».

العزيز الوهاب:

قال تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ [ص:٩].

فهو المنيع في ملكه وسلطانه، القوي القدير، يعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويعطي ويهب من يشاء، ويمنع من يشاء، وخزائن السموات والأرض بيده، ليس لهؤلاء شيء من ذلك.

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: أم عند هؤلاء المشركين المنكرين وَحْي الله إلى محمد ﴿خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾، يعني: مفاتيح رحمة ربك يا محمد، ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ في سلطانه، ﴿ٱلْوَهَّابِ﴾ لمن يشاء من خلقه ما يشاء، من ملك وسلطان ونبوة، فيمنعوك يا محمد ما مَنّ الله به عليك من الكرامة، وفضَّلك به من الرسالة».

عزيز مقتدر:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۞ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٤١-٤٢].

وجه اقتران «العزيز» بـ«المقتدر» من أوضح ما يكون، فعزيز: قاهر غالب قوي، ومقتدر؛ أي: على عقوبتهم وأخذهم، فأخذَهم بعزته واقتداره، وهم عاجزون مقهورون، لا يستطيعون الوصول إليه عز وجل فيغالبونه أو يردون عذابه.

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: فعاقبناهم بكفرهم بالله عقوبةَ شديدٍ لا يُغلب، ﴿مُّقۡتَدِرٍ﴾ على ما يشاء، غيرِ عاجزٍ ولا ضعيف».

فصل

وأخيرًا: ورد اسم «العزيز» في آخر سورة الحشر مسرودًا ضمن مجموعة كثيرة من الأسماء الحسنى، وخُتِمَتْ السورة به؛ فذُكِر مرة ثانية مقرونًا باسم «الحكيم»!! قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الحشر:٢٢-٢٤].

قال ابن عاشور: «ووجه ذكر هذه الصفات الثلاث عقب صفة «المهيمن»[(١)] أن جميع ما ذكره آنفًا من الصفات[(٢)] لا يُؤْذِن إلا باطمئنان العباد لعناية ربهم بهم وإصلاح أمورهم، وأن صفة «المهيمن» تؤذن بأمر مشترك، فعُقِّبَتْ بصفة «العزيز» ليعلم الناس أن الله غالب لا يعجزه شيء، وأُتْبِعَتْ بصفة «الجبار» الدالة على أنه مسخِّر المخلوقات لإرادته، ثم صفة «المتكبر» الدالة على أنه ذو الكبرياء: يصغر كل شيء دون كبريائه، فكانت هذه الصفات في جانب التخويف كما كانت الصفات قبلها في جانب الإطماع». اهـ.

وقال ابن كثير: «﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾؛ أي: الذي قد عَزّ كل شيء فقهره، وغلب الأشياء فلا يُنال جنابه؛ لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه، ولهذا قال: ﴿ٱلۡجَبَّارُ

---

(١) المهيمن: الرقيب المطلع الشاهد على كل شيء، الحافظ له، المسيطر عليه، فكل شيء خاضع لسلطانه، قد أحاط سبحانه بكل شيء علمًا.

(٢) يعني: الصفات التي قبل اسم «المهيمن».

ٱلۡمُتَكَبِّرُ ﴾؛ أي: الذي لا تليق الجبرية إلا له، ولا التكبر إلا لعظمته، كما في «الصحيح»: «العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحدًا منهما عذبته».

قلت: فتأمَّل بديع أسرار اقتران اسم «العزيز» بغيره من الأسماء يُوجِب إنابةَ القلب إلى خالقه العظيم، واستسلامَه له وإذعانه، واستشرافَه لطلب الزلفى لديه، والاحتماءَ بحماه الآمن المنيع، والاعتناءَ بالتعبد له بهذا الاسم العظيم حال اقترانه بغيره من الأسماء، إضافة إلى حال كونه مفردًا!

الأعزّ

و«الأعزّ» من أسماء الله تعالى:

رُوي عن ابن مسعود رضي الله عنه، أن النبي ﷺ كان إذا سعى في بطن المسيل قال:

«اللهـم اغفر وارحم، وأنت الأعز الأكرم»[1].

وقد ثبت عن جمع من السلف الدعاء به، كما قال شيخنا الألباني رحمه الله.

ثم قال في «مناسك الحج والعمرة»: «رواه ابن أبي شيبة عن ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهما بإسنادين صحيحين، وعن المسيب بن رافع الكاهلي وعروة بن الزبير».

قلت: هذه الروايات في «المصنف»[2] كما يلي:

عن شقيق قال: كان عبد الله إذا سعى في بطن الوادي قال: رب اغفر وارحم، إنك الأعز الأكرم.

وعن شقيق عن مسروق عن عبد الله مثله.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣/٣٦٣/ رقم ٢٧٧٨). قال الهيثمي في «المجمع»: «وفيه ليث بن أبي سليم، وهو ثقة، ولكنه مدلس».

(٢) (٣/٤٠٤ و٦/ ٨٤).

وعن أبي إسحاق عن ابن عمر، أنه كان يقول: رب اغفر وارحم، وأنت الأعز الأكرم.

وعن أبي إسحاق عن حسن عن ابن عمر، أنه كان يفعله.

وعن الهيثم بن حنش عن ابن عمر، أنه كان يقول: رب اغفر وارحم، أنت الأعز الأكرم.

وعن العلاء بن المسيب عن أبيه قال: كان إذا مر بالوادي بين الصفا والمروة سعى فيه حتى يجاوزه ويقول: رب اغفر وارحم، وأنت الأعز الأكرم.

ولم أجد رواية عروة في «المصنف».

وعَدّ «الأعز» في أسماء الله عز وجل ابنُ حزم الأندلسي في «المحلى».

و«الأَعَزّ»: هو العزيز الذي لا أعزَّ منه، وليس كمثله شيء، ومعاني العزة كلها[1] ثابتة لله سبحانه على أكمل وجوه العظمة وأعلاها.

رب العزة

و«رب العزة» من أسماء الله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ * سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات:١٧٩-١٨٢].

قوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾، ليست العزة هنا العزة المخلوقة المربوبة، ولكنها عزة الله التي هي وصفه سبحانه، فهي من إضافة الموصوف إلى الصفة، فالمعنى: ذي العزة وصاحب العزة.

قال ابن جرير وابن كثير: «أي: ذي العزة التي لا ترام».

قال ابن عاشور: «ورَبّ هنا بمعنى: مالك. ومعنى كونه تعالى مالك العزة: أنه منفرد بالعزة الحقيقة، وهي العزة التي لا يشوبها افتقار، فإضافة «رَبّ» إلى «العزة» على معنى

---

(١) وقد تقدمت.

لام الاختصاص، كما يقال: صاحب صدق، لمن اختص بالصدق وكان عريقًا فيه».

وقال الزمخشري: «أُضيف الرب إلى العزة لاختصاصه بها، كأنه قيل: ذو العزة، كما تقول: صاحب صدق، لاختصاصه بالصدق.

ويجوز أن يراد أنه ما من عزة لأحد من الملوك وغيرهم إلا وهو ربها ومالكها، كقوله تعالى: تعز من تشاء».

وقال ابن القيم في تفسير الآيات[1]: «فنَزَّهَ نفسَه عما يصفه به الخلق، ثم سلَّم على المرسلين لسلامة ما وصفوه به من النقائص والعيوب، ثم حمِد نفسَه على تفرده بالأوصاف التي يَستحق عليها كمال الحمد».

العزيز من أسامي القرآن

و«العزيز» من أسامي القرآن الكريم، فالله عزيز وكتابه عزيز! قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ * لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت:٤١-٤٢].

فمن اهتدى به هداه الله وارتفع به وعز، ومن كفر به فهو الخاسر الذليل.

ولله تعالى عبادٌ اختارهم لكتابه، ورفعَ شأنهم به، مؤمنون به، معظمون له، من حفظة متقنين، ومهرة تالين، ومتدبرين ومفسرين، ومتعلمين ومتفقهين، اتخذوه حكَمًا عليهم في دينهم ودنياهم، لا يلتفتون عنه يمنة ولا يسرة، كفر الناسُ به أو آمنوا.

قال سبحانه: ﴿ قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

(١) «الصواعق المرسلة» (١٥٣/١).

وقال سبحانه: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ۞ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۞ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ﴾ [المدثر:٥٤-٥٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴾ [الإسراء:٨٢].

فهو كتاب عزيز عالي الشأن، وليس هو بشفاء ورحمة وتذكرة إلا لمن ذكّره وآمن به وصدّق، وأما الظالمون المعرضون عنه فلا يزيدهم إلا خسارًا، وهذا من عزته وشرفه وعظمته! تعالى من تكلم به صدقًا، وأنزله على رسوله ﷺ حقًّا!

وقال تعالى: ﴿ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴾ [فصلت:٤٤].

آية العز

قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴾ [الإسراء:١١١].

قوله تعالى: ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴾؛ أي: ولم يكن لله سبحانه حليف يجيره، أو ناصر ينصره، فيدفع عنه الذل، فإنه الإله الواحد القهار، الغني، الذي لا إله غيره، ولا رب سواه، وعباده كلهم فقراء إليه محتاجون، ليس له منهم وزير ولا معين، وهو الله العزيز، الذي له العزة جميعًا، يعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، ويخفض من يشاء، ويرفع من يشاء، وهو يطعم ولا يطعم، ويجير ولا يجار عليه، ولا يتحرك ساكن، ولا يسكن متحرك، إلا بإذنه، ولا حول ولا قوة إلا به، سبحانه.

وروي عن معاذ بن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال:

«آيَةُ الْعِزِّ: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ

﴿ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴾ [الإسراء:١١١]»(١).

بيت العِزّة

قال الزُرقاني(٢): «شرف الله هذا القرآن بأن جعل له ثلاثة تنزُّلات:

التنزُّل الأول: إلى اللوح المحفوظ، ودليله قول سبحانه: ﴿ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ * فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴾ {البروج:٢١-٢٢}.

التنزُّل الثاني للقرآن: كان هذا التنزُّل الثاني إلى بيت العزة في السماء الدنيا، والدليل عليه قوله سبحانه في سورة الدخان: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ [الدخان:٣]. وفي سورة القدر: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ ﴾ [الدخان:٣]. وفي سورة البقرة: ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ ﴾ [البقرة:١٨٥].

دلت هذه الآيات الثلاث على أن القرآن أُنزل في ليلة واحدة توصف بأنها مباركة، أخذًا من آية الدخان، وتسمى ليلة القدر أخذًا من آية سورة القدر، وهي من ليالي شهر رمضان أخذًا من آية البقرة.

وإنما قلنا ذلك جمعًا بين هذه النصوص في العمل بها، ودفعًا للتعارض فيما بينها، ومعلوم بالأدلة القاطعة أن القرآن أُنزل على النبي ﷺ مفرقًا لا في ليلة واحدة، بل في مدى سنين عددًا، فتعين أن يكون هذا النزول الذي نوهت به هذه الآيات الثلاث نزولًا آخر غير النزول على النبي ﷺ.

وقد جاءت الأخبار الصحيحة مبيِّنة لمكان هذا النزول، وأنه في بيت العزة من السماء الدنيا، كما تدل الروايات الآتية:

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٦٣٤)، والطبراني في «الكبير» (٤٢٩ و٤٣٠) وغيرهما، وهو في «السلسلة الضعيفة» (١٥٤٧).

(٢) «مناهل العرفان» (٤٣/١-٤٦)، مختصرًا.

أخرج الحاكم بسنده، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، أنه قال: فُصِل القرآن من الذكر، فوُضع في بيت العزة من السماء الدنيا، فجعل جبريل ينزل به على النبي ﷺ[1].

وأخرج النسائي والحاكم والبيهقي، من طريق داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس، أنه قال: أُنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا ليلة القدر، ثم أُنزل بعد ذلك في عشرين سنة، ثم قرأ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣]. ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦].

وأخرج الحاكم والبيهقي وغيرهما، من طريق منصور، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: أُنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا، وكان بمواقع النجوم، وكان الله ينزله على رسوله ﷺ بعضه في إثر بعض.

وأخرج ابن مردويه والبيهقي، عن ابن عباس، أنه سأله عطية بن الأسود فقال: أوقع في قلبي الشك قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة:١٨٥] وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:١]. وهذا أُنزل في شوال وفي ذي القعدة وفي ذي الحجة وفي المحرم وصفر وشهر ربيع! فقال ابن عباس: إنه أُنزل في رمضان في ليلة القدر جملة واحدة، ثم أُنزل على مواقع النجوم رِسْلًا في الشهور والأيام.

قال أبو شامة: رِسْلًا؛ أي: رِفقًا. وعلى مواقع النجوم؛ أي: على مِثل مساقطها. يريد: أنه أُنزل في رمضان في ليلة القدر جملة واحدة، ثم أُنزل على مواقع النجوم مفرقًا يتلو بعضه بعضًا على تُؤَدَة ورِفق.

---

(١) قال الحافظ: «إسناده صحيح». «الفتح» (٤/٩).

هذه أحاديث أربعة من جملة أحاديث ذُكِرت في هذا الباب، وكلها صحيحة كما قال السيوطي[1]، وهي أحاديث موقوفة على ابن عباس، غير أن لها حكم المرفوع إلى النبي ﷺ[2]، لما هو مقرر من أن قول الصحابي ما لا مجال للرأي فيه، ولم يُعْرَف بالأخذ عن الإسرائيليات، حكمه حكم المرفوع.

ولا ريب أن نزول القرآن إلى بيت العزة من أنباء الغيب التي لا تعرف إلا من المعصوم، وابن عباس لم يُعْرَف بالأخذ عن الإسرائيليات، فثبت الاحتجاج بها.

بل ذكر السيوطي: أن القرطبي نقل حكاية الإجماع على نزول القرآن جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا». اهـ.

وقال شيخ الإسلام: «وهو سبحانه أنزل القرآن ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا».

الدعاء باسم العزيز

دعاء العبادة:

أما **دعاء العبادة**: فيكون بطلب العزة من الله تعالى، بعبادته وحده لا شريك له، والتذلل له والخضوع له والتواضع له، وبقدر ذله لله عز وجل وعبادته يكون نصيبه من العزة والرفعة وتحصل له ثمرته، وينال شرف عبادة الله تعالى باسمه العزيز.

والعبادة تجمع غاية الذل وغاية الحب، فكلما كنت للعزيز أعبد (يعني: أذل) كنت عنده أعز، فالعِز يُنال بالذل، لكن هو الذل لله العزيز، ولا أحد غير الله إذا ذَلَلْتَ له عَزَزْتَ.

---

(١) وصحح الحاكم رواياته الثلاث (٢٨٨١ و٢٨٧٩ و٢٨٧٨)، كما هي مرتبة أعلاه، ووافقه الذهبي.

(٢) وكونه له حكم الرفع قاله شيخنا الألباني أيضًا في بعض تسجيلاته الصوتية.

والعبادة ـ كما قال شيخ الإسلام[1] ـ: «هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج، وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك، من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه، والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف من عذابه، وأمثال ذلك، هي من العبادة لله، وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له والمرضية له التي خلق الخلق لها، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]».

دعاء المسألة:

وأما دعاء المسألة باسم العزيز: فيدعو مثلًا ويقول: يا عزيز أعزني، يا عزيز هب لي العزة والرفعة والقوة. يا عزيز أعزَّ الإسلام والمسلمين، وانصر عبادك المؤمنين، و أعز جندك الموحدين، وارفع الذل عن المستضعفين. ويقرن معه من الأسماء بحسب الحاجة، على ما تقدم بيانه.

وتقدم من الأدعية: ما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ قَالَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي كَفَانِي وَآوَانِي، الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي وَسَقَانِي، الْحَمْدُ للهِ الَّذِي مَنَّ عَلَيَّ فَأَفْضَلَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِعِزَّتِكَ أَنْ تُنَجِّيَنِي مِنَ النَّارِ، فَقَدْ حَمِدَ اللهَ بِجَمِيعِ مَحَامِدِ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ»[2].

(١) «جامع الرسائل» (٢/٢٨٤). وهو التعريف الأشهر الذي تلقاه أهل العلم بالقبول.

(٢) أخرجه الحاكم (١/٥٤٥ - ٥٤٦) وغيره. وهو في «السلسلة الصحيحة» (رقم ٣٤٤٤).

وحديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ كان يقول:

«اللهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ»(١).

دعاء الثناء:

وأما دعاء الثناء باسم العزيز: فيذكر هذا الاسم على وجه المدح لله به، فيقول: إن الله عزيز، أو إن الله هو العزيز، أو اللهـم أنت العزيز، أو نحو ذلك، ويقول هذا في نفسه، ويقوله في الملأ أيضًا، فإن الثناء على الله تعالى وحمده ومدحه، وتعريف الناس بعظمته وبأسمائه وصفاته وأفعاله، وأمره ونهيه، ودينه وشرعه، من أجل مقامٍ يضعك الله فيه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣].

ومما ورد من ذكر الله تعالى والثناء عليه باسمه العزيز:

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: عَلِّمْني كلامًا أقوله. قال:

«قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالْحَمْدُ للهِ كَثِيرًا، [وَ]سُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، [وَ]لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ [الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ]، الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ».

قال: فهؤلاء لربي، فما لي؟ قال:

«قُلِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَاهْدِنِي، وَارْزُقْنِي»(٢).

---

(١) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٦)، وابن حبان (٩٤٢)، والزيادات له، وغيرهما. وقد تقدم.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا تَضَوَّرَ[١] من الليل قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ، رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ»[٢].

هذا ما يحضرني الآن!

وتقدم في الجمع بين المسألة والثناء قول ابن مسعود وغيره رضي الله عنه في السَّعي: رب اغفر وارحم، إنك الأعز الأكرم.

عَزَّ وجلّ:

ويتبع الثناء على الله باسمه «العزيز» قولك: عز وجل، وهذه أكثر كلمة كان النبي ﷺ يصف بها ربه عز وجل، وذلك بمثل قوله: «قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ»، و«يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ»، و«إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ»، و«كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»، وغيرها، وأحيانًا يقول ﷺ: «جَلَّ وَعَزَّ».

ومعنى (عزّ وجلّ): عَزّ؛ أي: قهر وغلب سبحانه، وقَوِي، وامتنع جانبه، وعَظُم، وتعالى، وكان أعز ما في الوجود؛ أي: لا نظير له، ولا إله غيره، ولا رب سواه. وجلّ: أي عَظُم، فكانت له العظمة والكبرياء والكمال، سبحانه وتعالى.

فمَنْ عَبَدَ اللهَ تعالى بمعرفة اسم (العزيز)، وأن العزة لله، وأنه يعز من يشاء، ويذل من يشاء، وأن العبد مقهور مغلوب ذليل لخالقه تعالى، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا دون مولاه العزيز الرحيم، لجأ إليه، واستمد منه العون، وتوكل عليه في صلاح نفسه وسعادتها، ودفع ما يضرها، فإنه لا حول ولا قوة إلا به، فاعتصمَ بالعزيز في صلاح شأنه كله، وأيقن بحاجته إليه مع كل نفَس.

ومن التعبد باسم «العزيز»: أن لا يذل لغير الله، من الكفرة وأعداء الدين،

---

(١) أي: تلوّى وتقلب.

(٢) أخرجه ابن حبان (٢٣٥٨ - موارد) وغيره. وهو في «الصحيحة» (٢٠٦٦).

بل يكون عزيزًا عليهم، وأن لا يعز على المؤمنين، بل يكون ذليلًا عليهم(١)، وأولى الناس بهذه الخصلة الوالدان، فيخفض لهما جناح الذل من الرحمة(٢).

ومن استقام له التعبد باسم الله «العزيز» لم يتكبر على الله ولا على عبادته، بل فعل ذلك طوعًا وعن رغبة ومحبة، لأنه هو المحتاج لحماية العزيز له، فيسارع إلى طاعته ليدفع عنه ويعافيه ويسلّمه ويحفظه، ويجتنب معصيته لأنها سبب ذل العبد وهوانه وخذلانه.

وللتعبد لله باسمه «العزيز» شأنه وفتحه! وفيما ذكرناه كفاية تأخذ بيد اللبيب إلى الاطلاع على ما لم نذكره، وبالله التوفيق.

الاستعاذة بعزة الله

عن عثمان بن أبي العاص الثَّقَفِيِّ رضي الله عنه، أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وَجَعًا يجدُه في جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله ﷺ:

«ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ، وَقُلْ: بِاسْمِ اللهِ، ثَلَاثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِـ[عِزَّةِ] اللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ»(٣).

وتقدم حديث: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْ تُضِلَّنِي».

وحديث: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِعِزَّتِكَ أَنْ تُنَجِّيَنِي مِنَ النَّارِ».

القَسَم بعزة الله

قَسَمُ الله تعالى:

جاء في حديث الشفاعة: «ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ

---

(١) كما قال الله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤].

(٢) كما قال الله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء:٢٤].

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٠٢)، والزيادة للسنن الأربعة عدا النسائي، وهي عنده في «الكبرى»، وإسنادها صحيح.

لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَقُولُ: **وَعِزَّتِي** وَجَلَالِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي، لَأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»[١].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: **وَعِزَّتِكَ** يَا رَبِّ، لَا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ. فَقَالَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: **وَعِزَّتِي** وَجَلَالِي، لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ يروي عن ربه جل وعلا، قال:

«**وَعِزَّتِي**، لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْنِ، إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٣].

قَسَمُ جبريل عليه السلام:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ قَالَ لِجِبْرِيلَ: اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، **وعِزَّتِكَ** لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا، ثُمَّ حَفَّهَا بِالْمَكَارِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، **وَعِزَّتِكَ** لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ».

قال: «فَلَمَّا خَلَقَ اللَّهُ النَّارَ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، **وَعِزَّتِكَ** لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا، فَحَفَّهَا بِالشَّهَوَاتِ، ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه الحاكم (٧٦٧٢) وغيره. وهو في «الصحيحة» (١٠٤).

(٣) أخرجه ابن حبان (٦٤٠) وغيره، وهو في «صحيح الترغيب» (٣٣٧٦).

فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، **وَعِزَّتِكَ** لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا»[١].

قسم نبي الله أيوب عليه الصلاة والسلام:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«بَيْنَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا، فَخَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ أَيُّوبُ يَحْتَثِي فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ: يَا أَيُّوبُ، أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى؟ قَالَ: بَلَى **وَعِزَّتِكَ**، وَلَكِنْ لَا غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ»[٢].

قَسَمُ إبليس:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص:٨٢-٨٣].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: **وَعِزَّتِكَ** يَا رَبِّ، لَا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ. فَقَالَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: **وَعِزَّتِي** وَجَلَالِي، لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي»[٣].

قَسَمُ آخر من يخرج من النار:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن الناس قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ الحديث[٤]. وفيه: «وَيَبْقَى رَجُلٌ مِنْهُمْ مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ عَلَى النَّارِ، هُوَ آخِرُ أَهْلِ النَّارِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، اصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ، فَإِنَّهُ قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا، وَأَحْرَقَنِي ذَكَاؤُهَا، فَيَدْعُو اللَّهَ بِمَا شَاءَ أَنْ يَدْعُوَهُ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ: هَلْ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٤٤)، والترمذي (٢٥٦٠)، وغيرهما، وجود إسناده الألباني في تعليقه على «التنكيل» (١٧٧/٢).

(٢) أخرجه البخاري وغيره.

(٣) أخرجه الحاكم (٧٦٧٢) وغيره. وهو في «الصحيحة» (١٠٤). وتقدم قبل قليل.

(٤) متفق عليه.

عَسَيْتَ إِنْ أَعْطَيْتُكَ ذَلِكَ أَنْ تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لَا، **وَعِزَّتِكَ** لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، وَيُعْطِي رَبَّهُ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ مَا شَاءَ، فَيَصْرِفُ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ، فَإِذَا أَقْبَلَ عَلَى الْجَنَّةِ وَرَآهَا سَكَتَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيْ رَبِّ، قَدِّمْنِي إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَسْتَ قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثِيقَكَ أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَ الَّذِي أُعْطِيتَ أَبَدًا؟ وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، وَيَدْعُو اللَّهَ، حَتَّى يَقُولَ: هَلْ عَسَيْتَ إِنْ أُعْطِيتَ ذَلِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لَا **وَعِزَّتِكَ**، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، وَيُعْطِي مَا شَاءَ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ، فَيُقَدِّمُهُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا قَامَ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، انْفَهَقَتْ لَهُ الْجَنَّةُ[1]، فَرَأَى مَا فِيهَا مِنَ الْحَبْرَةِ وَالسُّرُورِ، فَيَسْكُتُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ اللَّهُ: أَلَسْتَ قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثِيقَكَ أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَ مَا أُعْطِيتَ؟ فَيَقُولُ: وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، لَا أَكُونَنَّ أَشْقَى خَلْقِكَ، فَلَا يَزَالُ يَدْعُو حَتَّى يَضْحَكَ اللَّهُ مِنْهُ، فَإِذَا ضَحِكَ مِنْهُ قَالَ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ».

قَسَمُ صاحب صبغة الجنة وصاحب صبغة النار:

عن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«يُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ كَانَ بَلَاءً فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: اصْبُغُوهُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ فِيهَا صَبْغَةً، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ، أَوْ شَيْئًا تَكْرَهُهُ؟ فَيَقُولُ: لَا **وَعِزَّتِكَ**، مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَكْرَهُهُ قَطُّ، ثُمَّ يُؤْتَى بِأَنْعَمِ النَّاسِ كَانَ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيَقُولُ: اصْبُغُوهُ فِيهَا صَبْغَةً، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ، قُرَّةَ عَيْنٍ قَطُّ، فَيَقُولُ: لَا **وَعِزَّتِكَ**، مَا رَأَيْتُ خَيْرًا قَطُّ، وَلَا قُرَّةَ عَيْنٍ قَطُّ»[2].

---

(١) أي: انفتحت واتسعت.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٠٧)، وأحمد (١٣٦٦٠)، وهذا لفظه، وغيرهما.

قَسَمُ جهنم:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن نبي الله ﷺ قال:

«لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حَتَّى يَضَعَ فِيهَا رَبُّ الْعِزَّةِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدَمَهُ، فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، **وَعِزَّتِكَ**، وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ»[١].

○○○○○

---

(١) متفق عليه.

العزة والمستقبل للإسلام

يا من يريد العزة، اعلم أنها لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين، وأن الله القوي العزيز النصير ناصر دينه ومعزّه وحافظه، رغم أنوف الكفرة والمنافقين وسائر أعداء الدين، ورغم مكر الماكرين، وكيد الكائدين، وتربص المتربصين، فارفع رأسك واعتزَّ بالإسلام، واشمخ بالإيمان، وارضَ طائعًا راغبًا محبًّا مفتخرًا معتزًّا، بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا.

ولا تغرَّنَّك قوة الباطل وانتشاره وانتصاره، وتمكنه في الأرض، ولا تهولَنَّك سطوته وعدته وكثرة أتباعه، وبالمقابل ضعف المسلمين على كثرتهم أو قلتهم، فإن دين الله ـ ولا بد ـ منتصر وظاهر وقائم، وهو قوي متين متماسك، وإنْ ضعف أهلُه، أو نكص أتباعه! المنتسبون إليه، فله ولأتباعه المتمسكين به ولجنده وناصريه العاقبة في الدنيا والآخرة.

والكفار مهما علَوْا ومهما ارتفعوا، ومهما طغَوْا ومهما تجبروا، ومهما نالوا من العزة المدخولة الموهومة، فإن الأعمال بالخواتيم، والأمور بالنهايات، والعبرة بالعواقب، فالعاقبة الحسنى للتقوى وللمتقين وللمؤمنين وللمحسنين، والعاقبة السوء لأهل السوء، وعقبى الكافرين النار.

قال الله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ * مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ * لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٦-١٩٨].

وقال سبحانه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُۖ

﴿ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر:٤-٥].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [غافر:٢١-٢٢].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ﴾ [الأنفال:٣٦](١).

فالزم أيها مسلم سبيل الله تعالى، ودينه الحق، واستمسك به، وادْعُ إليه، وانصره، وجاهد في سبيله، واصبر وصابر، ولا تيأس من رَوح الله تعالى، فالدين دين الله عز وجل، وإنه له لحافظ، وإنه له لناصر.

ولا تنتظر رؤية الثمار، ولا تستعجل حصول النتائج، ولا تعلِّق قلبك بذلك، فتقع في اليأس والملل، وتترك الجِدّ والعمل، وتستروِح إلى العجز والكسل.

قال العليم الحكيم سبحانه: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾ [غافر:٧٧].

وقال سبحانه: ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ﴾ [الرعد:٤٠].

وقال سبحانه: ﴿ فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ۞ أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ۞ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الزخرف:٤١-٤٣].

---

(١) انظر إن شئت فصلًا في كتاب «معاتبة النفس» في عذاب الأقوام، ذكرت فيه كيف أن الله عز وجل أخذهم بكفرهم وظلمهم وعنادهم، فلم تنفعهم قوتهم وكثرتهم، ولم تغن عنهم من الله شيئًا.

وعن خباب بن الأَرَتِّ رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسد بردةً له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال:

«كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لاَ يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»(١).

ولا بد للدعوة من ثمار، ولا بد للجهاد من نتائج، عاجلًا أو آجلًا، وعدًا من الله عز وجل، كما قال سبحانه: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [النور:٥٥].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الروم:٤٧].

وقال سبحانه: ﴿ فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ * وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ * فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ * وَأَبۡصِرۡهُمۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ * فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ * وَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ * وَأَبۡصِرۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ﴾ [الصافات:١٧٠-١٧٩].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ * يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ [غافر:٥١-٥٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٢ و٣٨٥٢ و٦٩٤٣) وغيره.

وقال سبحانه: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج:١٥].

قال ابن كثير: «قال ابن عباس: من كان يظن أن لن ينصر الله محمدًا ﷺ في الدنيا والآخرة، ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾؛ أي: بحبل، ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: سماء بيته، ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾، يقول: ثم ليختنق به. وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء وأبو الجوزاء وقتادة، وغيرهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: ليتوصل إلى بلوغ السماء، فإن النصر إنما يأتي محمدًا من السماء، ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ ذلك عنه، إن قدر على ذلك.

وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر في المعنى[1]، وأبلغ في التهكم، فإن المعنى: من ظن أن الله ليس بناصر محمدًا وكتابه ودينه، فليذهب فليقتل نفسه، إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ۞ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾. ولهذا قال: ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾.

قال السُّدّي: يعني من شأن محمد ﷺ». اهـ.

وقال الزمخشري: «هذا كلام قد دخله اختصار، والمعنى: إن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة، فمن كان يظن من حاسديه وأعاديه أن الله يفعل خلاف ذلك، ويطمع فيه، ويَغيظه أنه يظفر بمطلوبه، فليَسْتَقْصِ وُسعه وليستفرغ مجهوده في إزالة ما يَغيظه، بأن يفعل ما يفعل مَنْ بلغ منه الغيظ كل مبلغ، حتى

---

(١) واستظهره الشنقيطي أيضًا. وقال: «وحاصل هذا القول: أن الله يقول لحاسديه ﷺ الذين يتربصون به الدوائر، ويظنون أن ربه لن ينصره: موتوا بغيظكم، فهو ناصره لا محالة على رغم أنوفكم».

مدّ حبلًا إلى سماء بيته فاختنق، فلينظر وليصوّر في نفسه أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذي يَغيظه؟! وسمى الاختناق قطعًا لأن المختنِق يقطع نفَسَه بحبس مجاريه، ومنه قيل للبُهْر[1]: القَطْع. وسمَّى فعله كيدًا لأنه وضعه موضع الكيد، حيث لم يقدر على غيره، أو على سبيل الاستهزاء، لأنه لم يَكِد به محسوده إنما كاد به نفسه، والمراد: ليس في يده إلا ما ليس بمُذهب لما يَغيظه.

وقيل: فليمدد بحبل إلى السماء المظلة، وليصعد عليه فليقطع الوحي أو ينزل عليه. وقيل: كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم وحَنَقهم على المشركين يستبطئون ما وعد الله رسوله من النصر، وآخرون من المشركين يريدون اتباعه ويخشون أن لا يثبت أمره، فنزلت.

وقد فُسِّر النصر بالرزق، وقيل: معناه أن الأرزاق بيد الله لا تُنال إلا بمشيئته، ولا بد للعبد من الرضا بقسمته، فمن ظن أن الله غير رازقه وليس به صبر واستسلام، فليبلُغ غاية الجزع وهو الاختناق، فإن ذلك لا يقلب القسمة ولا يردّه مرزوقًا[2]». اهـ.

وقال الله سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۞ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٢-٣٣].

وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۞ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف:٨-٩].

وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ

(١) البُهْر: تتابع النَفَس من الإعياء. «لسان العرب».

(٢) قال الشنقيطي: «وهذا القول الأخير ظاهر السقوط، كما ترى».

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [الفتح:٢٨].

فهذا وعد من الله تعالى بظهور دين الإسلام على جميع الأديان، وقد تحقق ذلك في عهد النبي ﷺ، فظهر الدين على سائر الأديان، وانتصر جند الله على جند الشيطان، واتسعت أرض الإسلام، وحكم وسيطر فيها الدين الحق أكثر من ألف سنة، وسيعود الإسلام قويًّا كما بدأ، وسينصر الله جنده، وسيحكِّم دينه، وسيظهره ويتمُّه أكثر وأكثر، حتى يعم الأرض كلها، مشارقها ومغاربها[١]، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف:٢١].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّى». فقلت: يا رسول الله، إن كنت لأظن حين أنزل الله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ أن ذلك تامًّا! قال:

«إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَوَفَّى كُلَّ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَيَبْقَى مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ، فَيَرْجِعُونَ إِلَى دِينِ آبَائِهِمْ»[٢].

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ[٣]، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي

---

(١) كما سيأتي.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٠٧) وغيره.

(٣) يريد بالأحمر والأبيض خزائن كسرى وقيصر، وذلك لأن الغالب على نقود ممالك كسرى الدنانير، والغالب على نقود ممالك قيصر الدراهم. «تُورِبِشْتي».

لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ[١]، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ[٢]، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا (أو قال: مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا)، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»[٣].

قال الخطابي[٤]: «قوله: (زوى لي الأرض)؛ معناه: قبضها وجمعها، ويقال: انزوى الشيء: إذا انقبض وتجمع. وقوله: (ما زُوِي لي منها)، يتوهم بعض الناس أن حرف (من) ههنا معناه التبعيض، فيقول: كيف اشترط في أول الكلام الاستيعاب ورد آخره إلى التبعيض؟! وليس ذلك على ما يقدرونه، وإنما معناه التفصيل للجملة المتقدمة، والتفصيل لا يناقض الجملة ولا يبطل شيئًا منها، لكنه يأتي عليها شيئًا شيئًا، ويستوفيها جزءًا جزءًا، والمعنى: أن الأرض زُوِيت جملتها له مرة واحدة فرآها، ثم يفتح له جزء جزء منها حتى يأتي عليها كلها، فيكون هذا معنى التبعيض فيها».

وعن تميم الداري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ»[٥].

وعن أبي قَبيل، قال: كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاصي، وسئل: أي

---

(١) السَّنة: القحط والجدب، وهي من الأسماء الغالبة. «طِيبي».

(٢) أي: مجتمعهم وموضع سلطانهم ومستقر دعوتهم، وبيضة الدار: وسطها ومعظمها، أراد عدوًّا يستأصلهم ويهلكهم جميعهم. «طِيبي».

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٨٩) وغيره.

(٤) «معالم السنن» (٣٣٩/٤).

(٥) أخرجه أحمد (١٦٩٥٧) وغيره. وهو في «الصحيحة» (رقم ٣).

المدينتين تفتح أولًا: القسطنطينية أو رُومِيَّةُ؟ فدعا عبد الله بصندوق له حَلَقٌ، قال: فأخرج منه كتابًا، قال: فقال عبد الله: بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب، إذ سئل رسول الله ﷺ: أي المدينتين تفتح أولًا: قسطنطينية أو رُومِيَّةُ؟ فقال رسول الله ﷺ: «مَدِينَةُ هِرَقْلَ تُفْتَحُ أَوَّلًا». يعني: قسطنطينية[1].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول:

«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». قال: «فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ، فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَعَالَ صَلِّ لَنَا. فَيَقُولُ: لَا، إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ. تَكْرِمَةَ اللهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ»[2].

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«لَا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْرِ اللهِ، قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ»[3].

واعتبر أيها المسلم بما حصل للمؤمنين المسلمين وللكافرين المشركين في أول معارك الإسلام، يوم بدر، لتستيقن أن دين الإسلام حق وظاهر وغالب ومنتصر ولا بد، وأن ما سواه باطل وزاهق ومغلوب ومخذول، ولن ينفع الكفر وأهله أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا، لا في الدنيا ولا في الآخرة، كما حصل لمن هم أشد منهم قوة وبأسًا، وأكثر أموالًا وأولادًا، كآل فرعون وغيرهم، ممن كذب الرسل وعاندوهم وقاتلوهم، فأخذهم الله عز وجل، وكذلك الأمر فيمن بعدهم، سيهزمون ويغلبون، وفي الآخرة عقاب شديد وعذاب أليم، وحشر إلى جهنم وبئس المهاد، كما قال الله تعالى:

---

(١) أخرجه أحمد (٦٦٤٥) وغيره. وهو في «الصحيحة» (رقم ٤)

(٢) أخرجه مسلم (١٥٦ و١٩٢٣) وغيره.

(٣) أخرجه مسلم (١٩٢٤) وغيره.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ۞ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۞ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۞ قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [آل عمران:١٠-١٣].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَا﴾. الآية، ذكر في هذه الآية الكريمة أن وقعة بدر آية؛ أي: علامة على صحة دين الإسلام، إذ لو كان غير حق لما غلبت الفئة القليلة الضعيفة المتمسكة به الفئة الكثيرة القوية التي لم تتمسك به.

وصرح في موضع آخر أن وقعة بدر بينة؛ أي: لا لَبس في الحق معها، وذلك في قوله: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾ [الأنفال:٤٢].

وصرح أيضًا بأن وقعة بدر فرقانٌ فارقٌ بين الحق والباطل، وهو قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾ [الأنفال:٤١]. الآية».

وقال ابن سعدي: «فنصر الله المؤمنين وأيدهم بنصره، فهزموهم وقتلوا صناديدهم، وأسروا كثيرًا منهم، وما ذاك إلا لأن الله ناصر من نصره، وخاذل من كفر به، ففي هذا عبرة ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾؛ أي: أصحاب البصائر النافذة والعقول الكاملة، على أن الطائفة المنصورة معها الحق، والأخرى مبطلة، وإلا فلو نظر الناظر إلى مجرد الأسباب الظاهرة والعَدد والعُدد لجزم بأن غلبة هذه الفئة القليلة لتلك الفئة الكثيرة من أنواع المحالات، ولكن وراء هذا السبب المشاهَد بالأبصار سبب أعظم منه، لا يدركه إلا أهل البصائر والإيمان بالله والتوكل على الله والثقة بكفايته، وهو نصره وإعزازه لعباده المؤمنين على

أعدائه الكافرين».

وعن أبي زُرْعَةَ قال: كتب إليّ إسحاق بن راهَوَيْهِ: لا يهولنك الباطل، فإن للباطل جولة ثم يتلاشى[1].

وعن ابن أبي أسامة قال: حُكي لنا أن أحمد قيل له أيام المحنة: يا أبا عبد الله، أوَلَا ترى الحق كيف ظهر عليه الباطل؟!

قال: كلا، إن ظهور الباطل على الحق أن تنتقل القلوب من الهدى إلى الضلالة، وقلوبنا بعد لازمة للحق[2].

وقال شيخ الإسلام[3]: «ومن سنة الله أنه إذا أراد إظهار دينه أقام من يعارضه، فيحق الحق بكلماته، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه، فإذا هو زاهق».

وقال[4]: «ومن أعظم أسباب ظهور الإيمان والدين، وبيان حقيقة أنباء المرسلين، ظهور المعارضين لهم من أهل الإفك المبين».

وقال[5]: «والفتنة للإنسان كفتنة الذهب إذا أُدخل كيرَ الامتحان، فإنها تميز جيّده من رديئه، فالحق كالذهب الخالص، كلما امتُحن ازداد جودة، والباطل كالمغشوش المضيء، إذا امتُحن ظهر فساده.

فالدين الحق كلما نظر فيه الناظر، وناظر عنه المناظر، ظهرت له البراهين، وقوي به اليقين، وازداد به إيمان المؤمنين، وأشرق نوره في صدور العالمين.

والدين الباطل إذا جادل عنه المجادل، ورام أن يقيم عُوده المائل، أقام الله تبارك وتعالى مَنْ يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، وتبين أن صاحبه

---

(١) مقدمة «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (٣٤٢/١).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢٣٨/١١).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٥٧/٢٨).

(٤) «الجواب الصحيح» (٨٥/١).

(٥) «الجواب الصحيح» (٨٨/١-٩٠).

الأحمق كاذب مائق[1]، وظهر فيه من القبح والفساد، والحلول والاتحاد، والتناقض والإلحاد، والكفر والضلال، والجهل والمحال، ما يظهر به لعموم الرجال، أن أهله من أضل الضُّلال، حتى يظهر فيه من الفساد ما لم يكن يعرفه أكثر العباد، ويتنبه بذلك من سِنة الرقاد، من كان لا يميز الغَي من الرشاد، ويحيا بالعلم والإيمان من كان ميت القلب لا يعرف معروف الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ولا ينكر منكر المغضوب عليهم والضالين». اهـ.

ولا تيأسَنّ أيها المسلم إذا ما ذكرتَ حديث النبي ﷺ: «إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ»[2]، بل استبشر وأمِّل، واثبت عليه، وتمسك به، فالعاقبة له ولأهله.

قال شيخ الإسلام [3]: «وكثير من الناس إذا رأى المنكر أو تغير كثير من أحوال الإسلام جزِع وكَلّ وناح كما ينوح أهل المصائب، وهو منهي عن هذا، بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين الإسلام، وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن العاقبة للتقوى، وأن ما يصيبه فهو بذنوبه، فليصبر إن وعد الله حق، وليستغفر لذنبه، وليسبح بحمد ربه بالعشي والإبكار.

وقوله ﷺ: «ثُمَّ يَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ»، يحتمل شيئين: أحدهما: أنه في أمكنة وأزمنة يعود غريبًا بينهم ثم يظهر، كما كان في أول الأمر غريبًا ثم ظهر، ولهذا قال «سَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ». وهو لما بدأ كان غريبًا لا يُعرف ثم ظهر وعُرف، فكذلك يعود حتى لا يُعرف ثم يظهر ويُعرف، فيَقِلّ مَنْ يعرفه في أثناء الأمر، كما كان من يعرفه أولًا». اهـ.

---

(١) أي: هالك حُمْقًا.

(٢) بعض حديث، أخرجه أبو عمرو الداني في «السنن الواردة في الفتن» (٢٨٨) وغيره، وهو في «السلسلة الصحيحة» (١٢٧٣).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٨/٢٩٥-٢٩٦)، ولكلامه بقية.

قلت: وترى كثيرًا من الناس لا يهتمون لأمر الدين! ولا يكترثون بما حل بالإسلام وأهله! وإنما همهم أنفسهم وأموالهم وأولادهم وأهليهم وأرزاقهم! والقليل الموفق منهم مَنْ همه الأول دينه وإيمانه وإسلامه، وسعيه لنصرته وتأييده والدعوة إليه.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤].

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: حدثني عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاث مائة وتسعة عشر رجلًا، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مد يديه، فجعل يهتف بربه:

«اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ».

فما زال يهتف بربه، مادًّا يديه، مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن مَنْكِبيه، فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه فألقاه على مَنْكِبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴾ [الأنفال:٩]. فأمده الله بالملائكة. الحديث(١).

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ مسلم (١٧٦٣) وغيره. وأخرجه البخاري، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بألفاظ، أحدها: عن ابن عباس، أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر: «أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ بَعْدَ اليَوْمِ أَبَدًا». فأخذ أبو بكر بيده وقال: حسبك يا رسول الله، فقد ألححت على ربك. وهو في الدرع، فخرج وهو يقول: ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۞ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر:٤٥-٤٦].

وقال ابن مفلح[1]: «قال [ابن عَقيل] في «الفنون»: من عجيب ما نَقَدْتُ من أحوال الناس: كثرة ما ناحوا على خراب الديار، وموت الأقارب والأسلاف، والتحسر على الأرزاق، بذَمِّ الزمان وأهله، وذِكر نكد العيش فيه، وقد رأَوْا من انهدام الإسلام، وشعث الأديان، وموت السنن، وظهور البدع، وارتكاب المعاصي، وتَقَضِّي العمر في الفارغ الذي لا يُجدي، والقبيح الذي يُوبق ويؤذي، فلا أجد منهم من ناح على دينه، ولا بكى على فارط عمره، ولا أَسِيَ على فائت دهره، وما أرى لذلك سببًا إلا قلة مبالاتهم بالأديان، وعِظَم الدنيا في عيونهم، ضد ما كان عليه السلف الصالح، يرضَوْن بالبلاغ، وينوحون على الدين»[2].

○○○○○

(١) «الآداب الشرعية» (٢/٢٤٤-٢٤٥ و٣/٢٤٠).

(٢) انتهى هذا الفصل مستلّا من آخر كتابي «معاتبة النفس»، بتصرف وزيادة وحذف يسير.

خاتمة

وبعد أخي القارئ، فإذا أردت أن تضبط أمرك، وتلم شعثك، فالزم ذكر الله تعالى على الدوام، ولا تكن من الغافلين، وحصِّن نفسك به، واجعله شغلك الشاغل، وديدنك الدائم، من تلاوة وتسبيح وتهليل وسائر الأذكار والأدعية، وتعلم معاني ما تتلو وتذْكُر، وأحضر قلبك فيه، فإن الحضور روح الذكر[١].

قال الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥].

وقال سبحانه: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢].

فأيُّ عِزٍّ وأيُّ شرف ورفعة أعظم من هذا؟!!

قال خالد الرَّبَعي[٢]: «﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾، قف عندها ولا تعجل، فلو استقر يقينها في قلبك ما جفت شفتاك».

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ:

«أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟» قالوا: بلى. قال: «ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى»[٣].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خرج معاوية على حَلْقَةٍ فِي المسجد، فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله، قال آللهِ ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إني لم أستحلفْكُمْ تُهْمَةً لكم،

---

(١) انظر ـ إن شئت ـ ما يتعلق بالذكر بالبسط والتفصيل في كتابيَ: «المشوق إلى الذكر» و«الأذكار المضاعفة».

(٢) انظر «الدر المنثور» (٢/٦٥).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٧٧) وغيره، وصححه الألباني.

وما كان أحد بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقَلَّ عنه حديثًا مني، وإن رسول الله ﷺ خرج على حَلْقَةٍ من أصحابه، فقال:

«مَا أَجْلَسَكُمْ؟» قالوا: جلسنا نذكر الله ونَحْمَده على ما هدانا للإسلام، ومَنَّ به علينا. قال: «آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟» قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك. قال:

«أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ»[1].

قال النووي[2]: «قوله ﷺ: (إن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة)؛ معناه: يُظهر فضلكم لهم، ويريهم حسن عملكم، ويثني عليكم عندهم، وأصل البهاء الحسن والجمال، وفلان يباهي بماله وأهله؛ أي: يفخر ويتجمل بهم على غيرهم، ويظهر حسنهم».

وقال ابن القيم[3]: «فهذه المباهاة من الرب تبارك وتعالى دليل على شرف الذكر عنده، ومحبته له، وأن له مزية على غيره من الأعمال».

وعن الأَغَرِّ أبي مسلم، أنه قال: أشهد على أبي هريرة وأبي سعيد الخدري، أنهما شهدا على النبي ﷺ أنه قال:

«لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»[4].

قال الشوكاني[5]: «(قوله: حفتهم الملائكة)؛ أي: أحدقت بهم واستدارت عليهم. ومعنى (غشيتهم الرحمة): سترتهم، أخْذًا من التغشي بالثوب. و(السكينة):

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠١) وغيره.

(٢) «شرح مسلم» (١٧/٢٣).

(٣) «الوابل الصيب» (ص ٩٣).

(٤) أخرجه مسلم (٢٧٠٠) وغيره.

(٥) «تحفة الذاكرين» (ص ١٢).

هي الطمأنينة والوقار».

قال: «وفي الحديث ترغيب عظيم للاجتماع على الذكر، فإن هذه الأربع الخصائص في كل واحدة منها على انفرادها ما يثير رغبة الراغبين، ويقوي عزم الصالحين على ذكر رب العالمين».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: أَنَا مَعَ عَبْدِي إِذَا هُوَ ذَكَرَنِي، وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ»[1].

قال ابن القيم[2]: «وهذه المعية معية خاصة، غير معية العلم والإحاطة العامة، فهي معية بالقرب والولاية والمحبة والنصرة والتوفيق».

قال: «والمعية الحاصلة للذاكر معية لا يشبهها شيء، وهي أخص من المعية الحاصلة للمحسن والمتقي، وهي معية لا تدركها العبارة ولا تنالها الصفة».

وعن عبد الله بن بُسْر رضي الله عنه، أن رجلًا قال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت علي، فأخبرني بشيء أتشبث به. قال:

«لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ»[3].

قال ابن القيم[4]: «فدله الناصح ﷺ على شيء يبعثه على شرائع الإسلام والحرص عليها والاستكثار منها، فإنه إذا اتخذ ذكر الله شعاره أحبه وأحب ما يحب، فلا شيء أحب إليه من التقرب بشرائع الإسلام، فدله ﷺ على ما يتمكن به من شرائع الإسلام وتسهل به عليه، وهو ذكر الله عز وجل».

قال: «يوضحه: أن ذكر الله عز وجل من أكبر العون على طاعته، فإنه يحببها إلى

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٧٩٢) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) «الوابل الصيب» (ص ٨٣).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٧٥) وغيره، وصححه الألباني.

(٤) «الوابل الصيب» (ص ٩٦-٩٧).

العبد، ويسهلها عليه، ويلذذها له، ويجعل قرة عينه فيها، ونعيمه وسروره بها، بحيث لا يجد لها من الكُلْفة والمشقة والثِقَل ما يجد الغافل، والتجربة شاهدة بذلك».

وأخلص أقوالك وأعمالك لله تعالى، والتزم فيها السنة، وإياك والبدع، وإياك والمحدثات.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ [البينة:٥].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [الحشر:٧].

وقال سبحانه: ﴿ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور:٦٣].

فهذا العمل الصالح وذانك شرطاه أيها المؤمن (الإخلاص والاتباع)، والأول هو الكَلِم الطيب، فبهما بدأنا وبهما ختمنا: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ ﴾ [فاطر:١٠].

أعزَّنا اللهُ وإياكم بذكره وطاعته، وأدخلنا الجنة بجوده ورحمته.

وصلِّ اللهم وسلِّم وبارك على محمد، عبدِك ورسولِك النبيِّ الأميّ، وعلى آله وصحبه.

تم، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

كتبه: محمد شومان الرملي

١٤٤٣هـ

الفهرس

الفهرس

كتب للمؤلف

الخوف من الله تعالى

المشوق إلى ذكر الله تعالى

الفرار إلى الله تعالى

الندامة الكبرى

دعوة الأنام إلى دار السلام

السعي المشكور

كشف الكرب

صفات الزوجة الصالحة

بشرى المتقين

المشوق إلى الحور العين

التحذير من اليمين الغموس

القواعد والفوائد في تزكية النفس

أبواب الجنة

مثل الحياة الدنيا

صفات الأبرار والمقربين

رؤية النبي ﷺ في المنام

دموع القراء

المواعظ الجوزية

الفروق لابن القيم

الفوائد الفقهية لابن القيم

الجزاء من جنس العمل

إحصاء الأسماء الحسنى

قناديل الشهداء

وداع الشهداء

اللؤلؤ المصنوع

أسئلة يوم القيامة

الأذكار المضاعفة

كنوز من تحت العرش

الفردوس الأعلى

سرير المنايا

شأن العافية

معاتبة النفس

غراس الجنة

النوادر الذهبية

الاعتبار بأقوال المحتضرين

أحاديث السنن الأربعة الموضوعة

تم بحمد الله